القسم الأول

الباب الأوّل : ظهور الإسلام .

الباب الثانى : بين السلطان والإمام .

الباب الثالث : إمام المسلمين .

البـاب الأول

ظهور الإسلام

« لأعطين الراية غدًا رجلاً
يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله
ورسوله . ليس بفرّار . يفتح الله
عز وجل على يديه » .

« حديث شريف »

ظهور الإسلام

الإمام جعفر الصادق نتاج قرن كامل من العظائم . يحنى لها الوجود البشرى هاماته . ويدين بحضاراته . على رأسها نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام . وفيها بطولات الإمام علىّ إلى جوار النبى ، وأثرها فى ظهور الإسلام ، ومشاركته فى إبان خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه . وآيات نبوغه وتبريزه فى السياسة والإدارة والقضاء والفقه والتشريع والبيان العربى والعلم بوجه عام . وإجلال جميع المسلمين لمكانته والتفاف شيعته حوله وتفضيلهم له على سائر الخلفاء الراشدين .

ثم قيام الفتنة فى أخريات خلافة عثمان واغتياله وبيعة المسلمين لعلىّ ، وخروج معاوية عليهم بأهل الشام ، وقيام الحرب بين أمير المؤمنين وبين جيش معاوية ، وخروج الخوارج واغتيال علىّ ، والبيعة لابنه الحسن . ثم تصالح الحسن ومعاوية حقنا للدماء . واستقرار الأمور للأخير نحو عشرين عاما .

ولما آلت الأمور إلى ابنه يزيد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء ، حيث استشهد الحسين بن علىّ أبو الشهداء . وأعقبتها وقعة الحرة ، حيث سفك دم الصحابة والتابعين ، ثم ضربت جيوشه الكعبة بالمنجنيق ومات وجيوشه تضرب الكعبة . فتولى بعده ابنه معاوية ، فتنازل عن الخلافة . وولى بنو أمية مروان بن الحكم وتتابع بعده بنوه .

أما أبناء الحسين فتتابعوا على حمل هموم المسلمين وإعلاء كلمة الدين والقيام فى الأمة مقام جدّهم الإمام « علىّ بن أبى طالب » والنهوض بتبعات الإمامة بتوفيق الله سبحانه : من علىّ بن الحسين « زين العابدين » إلى ابنه الإمام « الباقر » إلى حفيده الإمام « الصادق » .

والإشارات السريعة ، إلى كل أولئك ، مع الوجازة المفروضة ، موضوع الفصلين الأوّل والثانى فى هذا الباب . وفيهما مدخل الكتاب .

الفصل الأول

أخو النبى ﷺ

« أنت أخى وصاحبى »

« حديث شريف »

أوّل من آمن بالله ورسوله أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وأبو بكر الصديق وعلىّ بن أبى طالب . واختلف فى الأوّل منهما . والأكثرون يقولون عليًّا . واختلفوا فى سنّ علىّ يومئذ . قال ابن إسحق : إن عليًّا أول من آمن بالله وصدق رسول الله ، وهو ابن عشر سنين يومئذ .

لكن حسان بن ثابت ، وطائفة ، قالوا : إن أبا بكر هو الأوّل .

وروى ابن إسحق كيف أسلم علىّ بن أبى طالب بعد إسلام خديجة وصلاتها مع النبى بيوم واحد . إذ جاء فوجدهما يصليان . فقال على : يامحمد ما هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله . فأدعوك إلى عبادة الله وكفر باللات والعزى » .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم . فلست بقاضٍ أمرًا حتى أُحَدِّثَ أبا طالب . فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره .

فقال له : « ياعلىّ إن لم تسلم فاكتم » . فمكث علىّ تلك الليلة . ثم إن الله أوقع فى قلبه الإسلام . فأصبح غاديًا إلى رسول الله حتى جاءه فقال ؛ ماذا عرضت علىَّ يامحمد ؟

فقال : « تشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له . وتكفر باللات

والعزى . وتبرأ من الأنداد » . ففعل علىّ وأسلم . ومكث على يأتيه سرًّا خوفًا من أبى طالب . وكان مما أنعم الله به علَى علىٍّ أنه رُبِّى فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام .

ومِن رسول الله ﷺ وخديجة - أوّل مسلمين - ولدت فاطمة الزهراء . ومن أبنائها ومن أبناء علىّ وأبى بكر الصديق ، أى من أبناء نبىّ الإسلام ، والمسلمين الثلاثة الأولين ، ولد جعفر بن محمد : الامام الصادق .

وبدعوة أبى بكر أسلم خمسة من العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة ومات وهو عنهم راض : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة ابن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص . وهؤلاء الخمسة هم أهل الشورى . الذين جعل عمر الخلافة فيهم وفى « على بن أبى طالب » ، ليختاروا واحدا منهم فيبايعه المسلمون .

فعلىّ بن أبى طالب يجىء دائما فى صدارة أهل الإسلام .

وأبوه وأمه فى الصدارة كذلك :

لقد كفل أبوه محمدًا ابن أخيه عبد الله وهو ابن ثمانى سنين . وخرج به إلى الشام وهو ابن اثنتى عشرة . وهو الذى مثله فى الزواج من أم المؤمنين خديجة . ولما ماتت فاطمة بنت أسد ، أم علىّ ، نزل النبى فى لحدها وألبسها قميصه - ﷺ - وقال : لم يكن أحد أبر بى بعد أبى طالب منها » .

وجزى النبى صنيعهما فى علىّ . إذ كفله وهو ابن ست سنين ، ثم جعله سابقًا فى الإسلام . فلما كان النبى يعبد الله فى غار حراء كان علىّ يعبد الله وهو صبى مميز . ثم بسق الفرع وسمق فى جوار أخيه[1] ومربيه وعلى عين أبيه .

وفى سنة سبع من المبعث تآمرت قريش على قتل الرسول . وأبى قومه بنو هاشم . وظاهرهم بنو عمهم « المطلب بن عبد مناف » . فأجمع المشركون من قريش على إخراجهم من مكة إلى الشعب . فخرجوا مؤمنهم وكافرهم . فلما

---

(١) العرب تسمى ابن العم الشقيق أخا .

عرفت قريش أن رسول الله قد منعه قومه أجمعت ألّا تدخل إليهم شيئًا ، وقطعت عنهم الأسواق ثلاث سنين .

وكان « أبو طالب » يأمر رسول الله أن يأتى فراشه كل ليلة ، حتى يراه من أراد به شرًّا . فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه . فاضطجع على فراش الرسول . وأمره أن يرقد على بعض فرشهم فيرقد عليها . حتى إذا أكملوا ثلاث سنين أخبر الله رسوله أن العهد الذى تعاهدته قريش فى صحيفة علقوها بالكعبة قد أكلته الأَرَضَةُ . ولحست باقى الصحيفة . فخرجوا من الشعب إلى قريش . وأنبأ أبو طالب قريشًا أن الصحيفة قد أُكلت ، وأسماءهم قد لُحست ، كما أخبره ابن أخيه ، وأنبأهم أنه وأهله سيحمونه عن آخرهم .

وذات يوم سأل النبى أهله : أيكم يواليني فى الدنيا والآخرة ؟ - وعلىّ جالس - فسكتوا . وقال علىّ : أنا أواليك فى الدنيا والآخرة . فكانت هذه أوّل موالاة من النبىّ لعلىّ .

ولما حضرت الوفاة أبا طالب فى السنة العاشرة من المبعث عن بضع وثمانين ، جمع إليه وجوه قريش فقال بين ما قال : « .. وإنى أوصيكم بمحمد فإنه الأمين فى قريش . والصديق للعرب . وهو الجامع لكل ما وصيتكم به . وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن .. يامعشر قريش كونوا له ولاة .. » .

والنبى يقول : « مازالت قريش كاعة حتى مات عمى أبو طالب » .

وماتت خديجة بعد أبى طالب بأيام أو أشهر أو أكثر . وأذن الله للرسول فى الهجرة إلى المدينة ، وكان قد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ولم يُبْقِ فيها إلى جواره إلا أبا بكر وعليا . والأول هو الصِّديق والثانى هو « الفدائى الأوّل » .

فلقد رأت قريش ذلك فأجمعت على قتل النبى ، فبيتوه ورصدوه طول ليلهم ليقتلوه إذا خرج . فأمر عليًّا أن ينام على فراشه . ودعا ربه أن يعمى على

قريش أثره ، وخرج وقد غشى أبناءها النوم . فلما أصبحوا خرج علىّ عليهم وقال : ليس فى الدار ديار . فعلموا أن رسول الله نجا .

وكان « الفدائى الأوّل » قد شارف العشرين من العمر . استبقاه الرسول لأمر يتعلق بحياة الرسول . ليضحى من أجله بحياته . وسلمت الحياتان ، لأن الأولى حياة الإسلام ، ولأن الثانية سوف تفديها وتحرسها مرة إثر أخرى .

أخو النبى :

أقام علىّ بمكة أيامًا ليردّ فيها ودائع كانت عند الرسول . ثم لحق به فى المدينة . فنزل معه بقباء ، حيث أقام رسول الله مسجدها ثم خرج إلى دور أخواله بنى عدى بن النجار فأقام بها أشهرًا بنى فيها مسجده . وآخى بين تسعين من المهاجرين والأنصار على الحق والمساواة والتوارث . حتى نزل قوله تعالى : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) .

أما « أبو بكر » فآخى بينه وبين خارجة بن زيد . وأما « عمر » فآخى بينه وبين عتبان بن مالك . وأما « عثمان » فآخى بينه وبين أوس بن ثابت « أخى حسان » .

أما « علىّ » . فآخى بينه وبين نفسه ﷺ . بل هو قال له : « أنت أخى وصاحبى » . وفى ذلك رواية ابن عباس أن عليًّا كان يقول : « والله إنى لأخو رسول الله ﷺ ووليه » . وهذه هى المؤاخاة الثانية . فالأولى كانت بمكة .

ثم خرج المسلمون ليوم « بدر » ، فدفع رسول الله الراية إلى علىّ . وراية أخرى لرجل من الأنصار . فهذه أولى معارك الإسلام وكبراها . وفعل علىٌّ الأفاعيل بالعدو : قتل من المشركين بيده أربعة . وقيل خمسة وقيل ستة : أكثرهم من أهل معاوية بن أبى سفيان ، وهو لا يزال بين المشركين ، ثم قدّم الرسول فلذة كبده « لبطل بدر » . فبنى بفاطمة الزهراء وهى فى الثامنة عشرة[1] .

---

(١) روى جميع بن عمير التيمى قال : « دخلت مع عمى على عائشة فسألت : أى الناس كان =

روى ابن الأثير فى أسد الغابة : « أخبرنا .. عن الحارث عن علىّ فقال : خطب أبو بكر وعمر - يعنى فاطمة - إلى رسول الله ﷺ فأبى رسول الله ﷺ عليهما . فقال عمر : أنت لها ياعلىّ .

فقلت : مالى من شىء إلّا درعى أرهنها . فزوّجه رسول الله ﷺ فاطمة . فلما بلغ ذلك فاطمة بكت . قال ؛ فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال « مالك تبكين يافاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم خلقًا وأولهم سلمًا » .

أما العلم والحلم والسلم فهى التى احتاج فيها علىّ - وهو فى فتاء السن - إلى الشهادة بها من النبى لدى زهراء النبى .

وأما ميادين الوغى فقد شهدت له فيها رايات « بدر » . وستشهد له فيها الرايات الأخر :

فى يوم أحد - أخطر معارك الإسلام - كان علىّ فى الحرس ، إلى جوار النبى ، حين أصيب النبى فى المعركة . وكان طبيعيًا أن يُصاب علىّ بست عشرة ضربة ، كلّ ضربة تلزمه الأرض . وكما يقول سعيد بن المسيب سيد التابعين : « فما كان يرفعه إلّا جبريل عليه السلام » فلما اشتدّ الخطب ، وقتل حامل الراية - مصعب بن عمير - دفع الرسول الراية لعلىّ .. فقتل علىّ يوم ذاك واحدًا وقيل ثلاثة مشركين .

وفى يوم الخندق أزفت الآزفة حيث تيمم المشركون مكانًا ضيقاً فاقتحموه بخيلهم . فخرج لهم علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها . وكان عمرو بن عبد ودّ - فارس العرب - يريد أن يعرف مكانه يوم الخندق . فنادى من فوق الخيل : هل من مبارز ؟ فبرز له

= أحب إلى رسول الله ؟ قالت فاطمة . قيل من الرجال ؟ قالت زوجها . أن كان ما علمت صواما قواما » وفى مسند الإمام أحمد عن على أنه قال : دخل علىّ رسول الله ﷺ ، وأنانائم ، فاستسقى الحسن أو الحسين فقام النبى إلى شاة لنا بكىء « قليلة اللبن » فحلبها فدرت فجاء الحسن فنحاه النبى فقالت فاطمة : يارسول الله . كأنه أحبهما قال لا ولكنه استسقى قبله . ثم قال : « أنا وإياك وهذين ، وهذا الراقد ، فى مكان واحد يوم القيامة » .

توفيت بعد رسول الله بستة أشهر وقيل ثلاثة . وقيل بسبعين يوما عن تسع وعشرين سنة أو ثلاثين .

علىّ . قال له عمرو : ما أحب أن أقتلك لما بينى وبين أبيك .. وأصر علىّ ونزل عمرو عن فرسه .. وتجاولا. فما انجلى النقع حتى قتله علىّ . وفرّ أصحاب الثغرة بخيولهم منهزمين .

وفى غزوة بنى قريظة كانت له راية المسلمين :

وفى صلح الحديبية كان « كاتب » صحيفة الصلح علىّ بن أبى طالب يملى عليه رسول الله ﷺ ! فذلك كان أيمن صلح عرفه التاريخ البشرى . فلقد أصبح الذين أسلموا بعده وقبل فتح مكة ، أكثر ممن أسلموا قبله . وبه حفظت دماء الذين بايعوا تحت الشجرة ، ليظهر الإسلام على أعدائه وييسر فتح مكة .

وفى غزوة خيبر فتح الله على المسلمين حصنًا واستعصى اثنان على أبى بكر وعمر . فقال عليه الصلاة والسلام : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . ليس بفرّار . يفتح الله عز وجل على يديه » . ولما أصبح دعا عليًّا وقال : « خذ الراية وامض حتى يفتح الله عليك » .

وحمى الوطيس . وسقط ترس علىّ . فتناول بابًا وترس به نفسه .. ولم يزل يقاتل حتى فتح الله عليه .

وصدق أبو بكر بعد سنين فى وصف علىّ عندما حدث المسلمين عن علىّ وعمر : إن عليًّا إذا اعترضته عقبة حاول اقتحامها . فإما كسرته أو كسرها . أما عمر فإنه إذا صادفته عقبة دار لها .

وحمى الله فضائل الإسلام على يد علىّ . فلم يره أحد فى موقف المنكسر . ولما استشهد فى دفاعه عن هذه الفضائل ، كان الإسلام ينتصر .

وفى يوم حنين أعجبت المسلمين كثرتهم . فكادوا ينهزمون . وثبت الرسول . وقتل على صاحب راية المشركين وأخذها منه ، وكرّ المسلمون عليهم فهزموهم بإذن الله .

ولما قتل خالد بنى خزيمة خطأ وسباهم - وهم مسلمون - بعث الرسول عليًّا فوداهم وردّ إليهم أموالهم وقال لهم ؛ انظروا إن فقدتم عقالاً لأدينه . فبهذا أمرنى رسول الله ﷺ .

وفى السنة التاسعة خرج رسول الله إلى تبوك . واستعمل عليًا على المدينة . فسأل علىّ النبى فى ذلك . فأجابه : « إنما خلفتك لما تركت ورائى . فارجع فاخلفنى فى أهلى ، وأهلك . فأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبّى بعدى .. » فكان تخليفه عن هذه الغزوة تقديمًا له .إذ وضعه موضع هّرون من « موسى » عليه السلام . أى فى منزلة أخ الرسول من الرسول .

وتتابع التقديم . إذ نزلت عشر آيات من صدر سورة « براءة » من عهد كل مشرك لم يسلم أن يدخل المسجد الحرام بعد هذا العام .

فقالوا للرسول ؛ ابعث بها إلى أبى بكر - وكان على الناس فى حج البيت الحرام - فقال عليه الصلاة والسلام « لا يؤديها عنى إلّا رجل من أهل بيتى » وبعث عليًا على ناقته ﷺ فأدرك أبا بكر فى الطريق . فسأله أبو بكر هل جاء أميرًا أو مأمورًا ؟ قال علىّ : بل مأمورًا . فهو قد جاء بغرض خاص بتبليغ القرآن . أما إمارة الحاج فكانت لأبى بكر .

وفى كتب السنن أن النبى بعد عودته من حجة الوداع نزل بغدير خم وأعلن أنه يترك القرآن و « عترته » للمسلمين ثم أخذ بيد علىّ ودعا ربه : « اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه » .

وكان للرسول « كُتّابه » « والمنفذون » لأمره و « المفتون » فى حياته .

- ثقة من الله والرسول فى شجاعتهم وحكمتهم وسداد رأيهم - وفى كل صفة ، وكل طائفة ، كان على . فامتاز بهذه الخصيصة التى تحوى جماع خصائص أصحاب النبى .
- فكُتّاب النبى : أُبى بن كعب ، وأبو بكر وعمر ، وعثمان ، و« علىّ » ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وحنظلة بن الربيع .
- والمنفذون لأحكامه « ومنها ضرب الأعناق بين يدى النبى » . « علىّ » ، والزبير ، ومحمد بن مسلمة .
- والمفتون فى عهده : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، و« على » ، وأبى ابن كعب ، وابن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وعمار بن ياسر ، وزيد

ابن ثابت ، وسلمان ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى .

ولما بعث النبى عليه الصلاة والسلام عليًّا إلى اليمن قال على : « يارسول الله تبعثنى إلى اليمن ويسألوننى عن القضاء ولا علم لى به » . فضرب النبى بيده على صدره ثم قال « اللهم ثبت لسانه واهد قلبه » قال علىّ : « فو الذى خلق الحبّة وبرأ النسمة ما شككت فى قضاء بين اثنين بعد » . وهى خصيصة يدرك جلال اليقين فيها من ولى القضاء .

بين الخلفاء الراشدين :

صعدت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى وعلىّ بطل جيوشه غير منازع . وكان قد درّبه على القضاء والإفتاء ، فهاتان الوظيفتان هما أسمى عمل فى الدول ، وبخاصة فى الدول المسلمة ، حيث الحفاظ على الشريعة ، وإدارة الدول ، وسياسة الأمم ، واستقرار النظم ، واطمئنان الجماعة واجبات دينية . والإفتاء يعدل التشريع فى أيامنا هذه . والقضاء هو توزيع العدالة . والعدل صفة الله سبحانه .

لقد بعثه إلى اليمن . فقضى . وله قضاء مشهور عرض على النبى فاستحسنه . وله السؤال المشهور يوم ذاك إذ سأل : أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام : « بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب » . فدلّ بذلك على تفويضه فى أن يجتهد ، وأن يعمل بمقاصد الشريعة .. وكان أيامئذ فى عنفوان شبابه . فلم يفارقه الاجتهاد العظيم للأمة فى كل مناسبة تقتضى الاجتهاد .

وبالتربية النبوية فى القضاء والإفتاء . نفذ علىّ إلى صميم الفكر التشريعى فى الأمة . أى صميم شريعة الإسلام . فاحتاج أبو بكر وعمر إليه فى جوارهما ١ - ليشير عليهما . ٢ - ويقضى . ٣ - ويفتى .

أما فتاواه التشريعية فستبقى مثلاً أعلى للفكر الإسلامى فى سياسة الدولة وسياسة الناس .

إذ اشتهر عمر بأنه المجتهد الأكبر من كثرة ما واجه من ظروف طارئة على الدولة المنتصرة فى الشرق والغرب ، ومن طول ما حكم وهو خليفة ، واتساع ما فتح من الفتوح ، واختلاف من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ، فعلىّ كان يصحح الكثير للمجتهد الأكبر . وفى ذلك الحجة القاطعة على أنه فى أسمى وظائف الفكر ، وهما التشريع والقضاء ، كان بدوره مجتهدًا أكبر .

إليك قليلا من الأمثال ، تخيرناها ، من أمور معلمة فى الدين والفقه والسياسة :

* منع عمر تدوين الحديث - مخافة أن يخلط القرآن بشىء - وبهذا أبطأ التدوين عند أهل السنة قرنًا بتمامه . وانفتحت أبواب للجرح والتعديل وللوضع ، والضياع . أما علىّ فدوّن من أوّل يوم مات فيه الرسول . ولعلّه إذ دوّن صار مرجع الصحابة بما فيهم عمر .

وهذا الاتجاه العلمى للتدوين ، يؤازره اتجاه دينى ، وفقهى ، وسياسى ، واقتصادى ، لتوزيع الحقوق .

* قال عمر للناس يوما : ما ترون فى فضل فضل عندنا من هذا المال « مال الصدقة » قالوا : ياأمير المؤمنين . قد شغلناك عن أهلك وضيعتك فهو لك .

فالتفت إلى علىّ : وقال : ما تقول ؟ قال : قد أشاروا عليك . قال عمر : قل .

قال على : لم تجعل يقينك ظنًّا ؟ أتذكر حين بعثك رسول الله - ﷺ - ساعيًا فأتيت العباس بن المطلب ، فمنعك صدقته .

فقلت لى : انطلق إلى رسول الله - ﷺ - فوجدناه خاثرًا . فرجعنا ثم غدونا عليه . فوجدناه طيب النفس فأخبرناه بالذى صنع ..

فقال لك : أما علمت أن عمّ الرجل صنو أبيه ؟ وذكرنا الذى كان من طيب نفسه فى اليوم التالى فقال : أما أنكما أتيتمانى اليوم وكان عندى من الصدقة ديناران . فكان الذى رأيتماه من خثورى له . وأتيتمانى اليوم وقد وجهتهما غدًا « صباح اليوم » فذاك الذى رأيتما من طيب نفسى .

* ودعا عمر امرأة فأجهضت ما فى بطنها بفزعها فاستشار فى الدية .
فقال له عثمان وعبد الرحمن : لا عليك . إنما أنت مؤدب .
وقال علىّ : إن كانا قد اجتهدا فقد أخطأا . وإن لم يجتهدا فقد غشاك . أرى عليك الدية .
فقال عمر : عزمت عليك ألّا تبرح حتى تفرضها على بنى عدى .. وهذه الفتوى تعتبر تقدمًا تحاول أن تبلغه الحضارة المعاصرة ، ولا تكاد .

* ورأى عمر ذات يوم رجلاً مع امرأة على معصية . فاستشار فى أن يقضى بعلمه أم لابدّ من شهادة غيره ؟
قال علىّ : « يأتى بأربعة شهداء أو يجلد حدّ القذف شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين » .

* ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون لأنفسهم أربعة أخماس الأراضى المفتوحة أخذًا بظاهر الآية . فاستشار عمر الصحابة . فاختلفوا . لكن عليًّا كان من الرأى الذى أخذ به عمر ، وهو إبقاء الأراضى فى أيدى أصحابها وتكليفهم الخراج تسدّ من حصيلته حاجات الدفاع عن الأمة والإنفاق على المحتاجين .
وفى بقاء الأرض فى أيدى أصحابها بقاء لهم أو لمن يجيئون بعدهم . وأثر هذه الفتوى فى نشر الإسلام يذكر ويشكر .

* وعلىّ صاحب الرأى الشهير بتضمين الصناع ما يتلفونه إلّا أن يثبتوا أنه من عمل غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون لأن يدهم يد الأمين . لكن الزمان تغير فاقتضى تغير الناس التضمين. وفى ذلك قول علىّ : لا يصلح الناس إلّا ذاك . وهذا مضرب المثل على العمل بقصد الشارع من حفظ مصالح المسلمين وتوخى المصلحة الإسلامية حيث تكون .

* ورفعت إلى عمر قضية رجل قتلته امرأة وخليلها . فتردد هل يقتل الكثيرين بالواحد ؟ قال على : أرأيت لو أن نفرًا اشتركوا فى سرقة جزور هذا عضوا وهذا عضوا . أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال على : فكذلك .

فكتب عمر إلى عامله أن : اقتلهما فوالله لو اشترك أهل صنعاء كلهم لقتلتهم .

* وجيء عمر يومًا بامرأة زنت وأقرّت فأمر برجمها . لكن عليًّا قال : لعل بها عذرًا . ثم سألها : ما حملك على ما فعلت ؟ قالت : كان لى خليط وفى إبله ماء ولبن . ولم يك فى إبلى ماء ولا لبن . وظمئت واستسقيته فأبى أن يسقينى حتى أعطيه نفسى . فأبيت عليه ثلاثًا . فلما ظمئت وظننت نفسى ستخرج أعطيته الذى أراد فسقانى . قال على : الله أكبر (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم) .

* لقد كان عمر على الحق إذ أمر ألّا يفنى أحد بالمسجد وعلىّ حاضر . فجعل القضاء وقفًا عليه فى ساحة القضاء .

* وكان يقول اللهم لا تنزل بى شديدة إلّا وأبو الحسن إلى جنبى[1] .

بل يحيل سائليه علَى علىٍّ ويجيب أذينة العبدى إذ يسأله : من أين أعتمر ؟

إيت علىَّ بن أبى طالب فاسأله .

بل يقول : لولا علىٌّ لهلك عمر .

* ولعلىّ عهده المشهور إلى الأشتر النخعى[2] إذ ولّاه مصر . فهو دستور سياسى

(١) لا يتسع المقام فى هذا الباب إلا لبعض أمثال :

* قاضاه خصم إلى عمر وناداه عمر : قم ياأبا الحسن . ولاحظ عمر أنه تألم فسأله . فقال : « تألمت إذ كنيتنى ولم تكن خصمى فلم تسوّ بيننا » .

* وقاضاه يهودى - وهو خليفة - فى درع - ولم تكن للخليفة بينة . فقضى القاضى ضدّه ، فأسلم اليهودى لما رأى من العدل .

* وأودع قرشيان مائة دينار - لدى قرشية على ألّا تدفعها لأحدهما دون الآخر . ولبثا حولًا ثم جاء أحدهما وادّعى أن الآخر مات . فدفعت إليه المال . ثم جاءها الآخر فأخبرته . فترافعا إلى علىّ وعرف علىّ أن الرجلين مكرا بها . فقال للرجل : أليس قلتما لها لا تدفعى لواحد دون صاحبه ؟ قال بلى . قال اذهب فجيء بصاحبك . فذهب ولم يرجع .

وهذه اللفتات المرتجلة تصدر عن وحدة فكرية فى أمور الإثبات والإجراءات وإدارة الجلسات وهى دلائل متضافرة على اقتدار مقطوع القرين « لعقل فضائى » أجمع الصحابة العظماء على أنه أفضاهم .

(٢) الأشتر أوّل من عبر التعبير الشهير فى شأن معاوية حين سئل : أشهد معاوية بدرًا ؟ فأجاب : نعم من الجانب الآخر « أى جانب المشركين » .

ودينى وعالمى يضؤل دونه كل العهود ، بما فيه من شمول وتفصيل لقواعد الحكم الصالح . وإليه يرجع كل من أراد نجاحًا للحكم بصلاح الدنيا والدين .

والمصريون - مسلمين ومسيحيين - يحفظون قوله فيهم لواليه : « وأشعر قلبك الرحمة بهم والمحبة لهم . واللطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم . فإنهم : إما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل » .

* وعلىّ هو الذى يضبط فحوى الشرع ويرفعه إلى مقامه الحق فى تعريفه للفقيه فيقول للمسلمين : « ألا أنبئكم بالفقيه . حق الفقيه ؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله . ولم يرخص لهم فى معاصى الله . ولم يؤمنهم من مكر الله » .

* * *

كان منذ شبابه الذى أنضجته أحداث النزال والطعان فى الميدان - أعبد الناس وأكثرهم فى عبادته جمعًا مع الله لا يقطع صلاته والسهام تقع بين يديه يمينًا وشمالا . يربط على بطنه من الجوع فى حين يتصدق بأربعة آلاف درهم ، وعليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم . أما قوته فمن دقيق الشعير . يأخذ قبضة فيضعها فى الماء فيصبّ عليها قدحًا فيشربه .. وفى يده كل مال المسلمين !

ولما أصهر عمر إليه فى « أم كلثوم » كان يتوسل إلى الآخرة بلحمة النسب . فلقد كان يقول : « لقد أعطى علىّ بن أبى طالب ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلىَّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة بنت رسول الله ، ﷺ وسكناه المسجد مع رسول الله . يحل فيه ما يحل له » .

ولم يبرح عمر المدينة فى خلافته إلّا استخلف عليًّا عليها . فلقد كان ذلك سُنَّة عنده . أليس صاحبها - ﷺ - كان يستخلفه ، إذا برح المدينة ؟

وعلى « باب مدينة العلم » . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأت بابه » .

وهو « إمام البلاغة » . يجىء معاوية رجل من الكذبة فيقول له : جئتك من

عند أعيا الناس – يقصد عليًّا – فيجيب معاوية ، وهو أعدى الناس لعلىّ :
« ويحك فوالله ما سنّ الفصاحة للناس غيره » . كيف لا ؟ وبلاغته من بلاغة النبى .. مذ كان فكره من فكره ، وكان قد ربّاه فأحسن تأديبه ، حتى ليعيا بلغاء العرب عن فهم المعنى النبوى ويراه علىّ بادى الرأى .

شكا العباس من مرداس للنبى قسمه من الفَيْء بقوله :

أتجعـــل نهبى ونهب العبيـ ـد كنهب عيينـــة والأقـرع

« والعبيد فرس الشاعر . وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم » .

قال عليه الصلاة والسلام : « يا على اقطع لسانه » .

فأخذه علىّ ومضى .

قال العباس : أقاطع أنت لسانى ياأبا الحسن ؟

قال علىّ : إنى لمضٍ فيك ما أمر ..

ثم مضى به إلى إبل الصدقة وقال له : خذ ما أحببت .

ومن « نهج بلاغته » يسقى بلغاء العربية وحكماء الإسلام . ومن تعليمه وضع النحو العربى[1] . ووضع النحو بتعليم علىّ يذكر بالمكانة الخاصة لعلىّ فى علوم

---

(١) روى الأنبارى فى تاريخ الأدباء أن سبب وضع علىّ كرم الله وجهه لهذا العلم ما روى أبو الأسود الدؤلى (٦٧) حيث قال : دخلت على أمير المؤمنين علىّ فوجدت فى يده رقعة فقلت : ما هذه ياأمير المؤمنين فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء « يعنى الأعاجم » فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه ثم ألقى إلىّ الرقعة ومكتوب فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبئ به والحرف ما أفاد معنى » وقال لى : انح هذاالنحو وأضف إليه ما وقع عليك وأعلم ياأبا الأسود أن الأسماء ثلاثة .. ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر . وإنما يتفاضل الناس ياأبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر « أراد بذلك الاسم المبهم » قال : ثم وضعت بابى العطف والنعت ثم بابى التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها فكتبتها ماخلا « لكن » فلما عرضتها على أمير المؤمنين عليه السلام أمرنى بضم لكن إليها . وكلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، فقال : ما أحسن هذا النحو الذى نحوت فلذا سمى النحو . وإنّ المرء ليلاحظ أن هذا الفتح العظيم فى العلم كان من اهتماماته وهو أمير للمؤمنين ، ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداد لمعركة . وأن أبا الأسود هو واضع علامات الإعراب فى المصحف فى أواخر الكلمات بصبغ يخالف لون المداد الذى كتب به المصحف . فجعل علامة الفتح نقطة=

الإسلام . فالنحوالعربى هو الذى حفظ العربية . لغة القرآن . وهو أمر أصولىّ للغة ، كأصول الفقه . وسنرى موقفه المبدع فيها . وكذلك كانت مواقف علىّ بعد ظهور الإسلام ، وفى خلافة سابقيه ، تتصدى للأساسيات فى الإسلام .

لقد كان أطول الراشدين حياة فى الإسلام مما يظهر أثره عميقًا ، عمق الحوادث والعلوم وأثرها فى الإسلام ، وطويلًا لطول المدة التى حييها فى المراكز الأولى منذ ظهور الإسلام .

وربما أجمل القول فى مكان علىّ بين المسلمين قولُ ابن عباس :

« لعلىّ أربع خصال ليست لأحد غيره : هو أوّل عربى أو أعجمى صلى مع رسول الله - ﷺ - وهو الذى كان لواؤه معه يوم الزحف . وهو الذى صبر معه يوم فرّ غيره . وهو الذى غسله فأدخله قبره » .

أما عن العلم فيقول ابن عباس : « إذا ثبت لنا الشىء عن علىّ لم نعدل إلى غيره » . وأما عن العدل فيقول ابن مسعود معلم الكوفة وسادس المسلمين : « كنا نتحدث أنّ أقضى أهل المدينة علىّ » .

من أجل هذا وكثير غيره ، صحّ عند الشيعة أن النبى أفضى إليه بظاهر الشريعة وخافيها . وأنه أفضى بها إلى من خلفه .

* * *

وليس يملك أحد أن يفاضل بين الخلفاء الراشدين الأربعة إلّا باجتهادات تحتمل الخطأ والصواب . لقد بايعهم المسلمون بيعة صحيحة . وبايع علىّ الثلاثة السابقين عليه . فكانت بيعته شهادة لهم وله . فلهم جميعا مكانة الراشدين التى بوأهم الله إيّاها فى الزمن الذى أراده .

= فوق الحرف . والضم نقطة إلى جانبه والكسر نقطة فى أسفله والتنوين مع الحركة نقطتين ثم وضع نصر ابن عاصم (٨٩) تلميذ أبى الأسود النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها ثم جاء الخليل بن أحمد (١٧٥) فشارك فى إتمام بقية الإعجام .. والخليل شيعى كأبى الأسود . وهو واضع علم العروض وصاحب المعجم الأوّل وواضع النحو على أساس القياس .

فاللغة العربية مدينة لعلىّ وتلاميذ علىّ . وكملها البلاغة العربية .

وعلىّ معدود من خطباء التاريخ العالمى بخطبه والمناسبات التى دعت إليها .

ومن الحكمة أن ندرأ أسباب المراء والشحناء ، فننتهى عن المفاضلة بين السابقين الأولين إلاّ لحاجة . وأولى الناس بذلك الصحابة الذين أُمرنا بالاستغفار لهم ، وألاّ نجعل فى قلوبنا غلاً لهم .

ولئن فاضل « الأشعرى والغزالى » وبعض المتكلمين ، بين الخلفاء الراشدين ، فرتبوهم على حسب ترتيب استخلافهم ، فربما كان الأرجح أن مجيء علىّ فى آخر الخلفاء الأربعة تنحصر دلالته فى أن الله تعالى أجاءه إلى حيث كان دوره - لا مرتبته - هو الرابع . ولله الحكمة البالغة .

* * *

وعلىّ فى كثير من الأمور هو الأوحد : فالنبى هو الذى ربّاه . وآخاه . وأعّده للعظائم فصنعها . وعهد إليه تبليغ آى القرآن .. وهى جميعًا « خصوصيات » لا يرقى رقيّه فيها أحد . أما ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة وشاركها فيه كثيرون من علماء أهل السنة منذ القرون الأولى - كالمسعودى والحاكم والكنجى - حتى القرون الحديثة - كالألوسى ، وهو أن عليًّا ولد بالكعبة .

وإذا كان للصديق مكان « الصديقية » فلعلى قوله عليه الصلاة والسلام : « علىّ منى وأنا منه » .

وإذا كانت لعمر مكانة الفاروق ، فعمر نفسه كان يتمنى لو كان له واحدة من ثلاثة من خصال علىّ .

وإذا كان عثمان ذا النورين بإصهاره إلى النبى فى زوجتين لعثمان . فعلىّ - وحده - صاحب النسب ، والعقب ، الباقى من رسول الله .

لقد كان الحسن والحسين يسميان الرسول أباهما . كما كان الرسول يسميهما ابنيه طول حياته . ولم يناديا عليًّا بأنه أبوهما إلاّ بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى رسول الله ﷺ .

الشيعة :

لعلىّ - على ما رأينا - من فضل الله ما سلّمه الجميع له وتؤثره من جرائه

الشيعة ، منذ القرن الأوّل ، أى جيل الصحابة . ثم تلاحق عليه الجيلان التاليان . وهى الأجيال الثلاثة المفضلة بقوله ﷺ : « خير القرون قرنى – جيلى – ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، وتوالت على تكريمه به جماعة المسلمين إلا من ظلم . وهو موقعه الخاص من النبى ومن علوم الإسلام : إذ تتفرع عنه فروع النسب من أهل البيت . وتنبع منه بحار شتى للمعرفة تسقى منها المذاهب كافة . وفيها المتصوفة والمعتزلة ، وتفيد منها العلوم كافة ، ومنها العبادات والمعاملات والحرب والسلم والسياسة والاقتصاد والإدارة . فتطبع بطابعه العلوم الإسلامية عند الشيعة ، وتظهر آثاره فى علوم أهل السنة .

« والشيعة » كلمة قرآنية : (وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم) .

والتشيّع لعلىّ مكانة للفوز تقررت بالسنّة – روى السيوطى عن جابر ابن عبد الله قال : كنا عند النبى فأقبل علىّ فقال النبى : « والذى نفسى بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة » .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال رسول الله لعلى : « هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » .

وعن أم سلمة – رضى الله عنها – أن النبى قال لعلىّ : « أنت وأصحابك فى الجنة » .

وفى نهاية ابن الأثير ما نصّه فى مادة « لواقح » « وفى حديث علىّ قال له النبى ستقدم على الله أنت « وشيعتك » راضين مرضيين ويقدم عليك عدوّك غضابًا مقمحين » .

والزمخشرى يروى فى ربيع الأبرار حديث النبى عن « شيعة ولدك » وهو يتحدث إلى علىّ . وفى مسند أحمد بن حنبل وخصائص النسائى كثير فى الدلالة على شيعة علىّ .

ويخصص المسلمون « الشيعة » بأنهم هم التابعون والمقتدون والمتميزون باتباعهم واقتدائهم الكامل بالإمام علىّ والأئمة من بنيه .

وربما كان تعريف ابن حزم للشيعة جامعًا مانعًا . فهو يقول : « من وافق الشيعة فى أن عليًّا « أفضل » الخلق بعد رسول الله و « أحقهم » بالإمامة وولده من بعده ، فهو شيعى . وإن خالفهم فيما عدا ذلك فيما اختلف فيه المسلمون . فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيًّا » .

ظهر تفضيل الشيعة لعلىّ على جميع الصحابة بمجرد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، إذ دعت إلى ذلك دواع سياسية . فقد اجتمع المهاجرون والأنصار – وعلىّ مشغول بتجهيز رسول الله لقبره – فبايعوا أبا بكر باقتراح عمر . وثقل على بطل الإسلام علىّ أن يمضى الصحابة الأمور دونه ، وثقل على الزهراء[1] وعلى « شيعة علىّ » من صحابة الرسول . كما رأى البعض أحقية علىّ بالخلافة[2] .

---

(١) لم يورث الخليفة الزهراء من أبيها . وقصد إليها مع عمر يذكران لها حديث الرسول فى حرمانها من ميراثها . قال الصديق : إنى سمعته ﷺ يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » .
ثم قال الصديق : والله إن قرابة رسول الله أحب من قرابتى . وإنك أحب إلى من عائشة « بنته » .
قالت : أرأيتكما إن حدثتكما حديثًا عن رسول الله تعرفانه وتعملان به ؟
قالا : نعم .
قالت : ألم تسمعا قول الرسول : « رضا فاطمة من رضاى وسخط فاطمة من سخطى » .
قالا : سمعنا .
قالت : أنى أشهد الله أنكما أسخطتمانى . وما أرضيتمانى . ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه . وخرجا يبكيان . فلقد كانت تبكى .
ولقد كانت لله لا للدنيا دموع الزهراء والصديق والفاروق !
وأهل السنة ينحون نحوهما فى تفسير الحديث النبوى .
والشيعة لا يتسامحون فى حرمان الزهراء ميراثها .
ومن الغلاة فى الخصومة للشيخين من يقولون : إن عمر كان سبب البيعة لأبى بكر يوم السقيفة إذ قال له : امدد يدك أبايعك . وإن أبا بكر كان مصدر البيعة لعمر يوم استخلفه ليصرفا الأمر عن علىّ ، مع أن البيعة كانت عامة من الأمة .
وأهل السنة على أن الصحابة اجتهدوا للمسلمين ، وأن عليًّا أيدهم فى اجتهادهم إذ بايع ، بل تبع رأى عمر فيما بعد لما جعل « عمر » الأمر شورى فى الستة . ثم كان أصدق المسلمين فى طاعة عثمان .
(٢) ومنذئذ كانت لعلىّ شيعته . قال أبان بن تغلب : قلت لجعفر بن محمد « الصادق » جعلت فداك . هل كان أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنكر على أبى بكر فعله ؟ قال نعم : اثنا عشر =

ولكن عليًّا لم يلبث أن كمل اجماع المسلمين بالبيعة للصديق ، وجمل خلافة الصديق بالمشاركة والمشورة ، وتحمل فى خلافة الفاروق أعباء فى أخطر شئون الدولة والدين والناس والخليفة .

لقد كان كله شجاعة نفس وسداد رأى يوم الردة . قالت عائشة رضى الله عنها : خرج أبى يوم الردة شاهرًا سيفه راكبًا راحلته . فجاء على رضى الله عنه فأخذ بزمام راحلته وقال : أقول لك ما قال لك رسول الله - ﷺ - يوم أحد : « شم سيفك لا تفجعنا بموتك . فو الله إن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدا » .

ولقد كان كله شجاعة فكر ، وبراعة فقه ، يوم استشاره عمر فى غزو الفرس بنفسه وكرر « أخو النبى » نصحه فى بلاغة معلّمة وأسانيد تترى . لكنه لم يذكر « السابقة » لعمر كما صنع مع أبى بكر . فالصديق هو إمام « الاتباع » الذى بلغ به مراتبه . أما عمر فهو « يجتهد » ويتبع . وعند على من « الاتباع » و « الاجتهاد » ما يروى الشيخين معًا :

قال لعمر بين ما قال : « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة . وهو دين الله الذى أظهره .. ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه . فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدًا . والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع . فكن قطبًا واستدر الرحى بالعرب . وأصلِهم دونك نار الحرب .

إنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع من الفورات أهم إليك مما بين يديك . ان الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا يقولوا هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشدّ لِكَلَبِهم عليك ومطمعهم فيك .. » .

= رجلًا . من المهاجرين : خالد بن سعيد بن العاص ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى ، والمقداد ابن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وبريدة الأسلمى ، ومن الأنصار : أبو الهيثم بن التيهان ، وسهل وعثمان ابنا حنيف ، وخزيمة بن ثابت ، وأبى بن كعب ، وأيوب الأنصارى .

فلنلاحظ ..هذه الخطة المتعددة الغايات بالحركة الواحدة : أن يبقى قطبا للرحى ، وأن يستديرها بالعرب ، وأن يجعلهم يحاربون العدو بدلاً من الخليفة .

وأن يحميهم من تنازعهم ولم يكن قد مضى على توبة بعضهم من الردة إلاّ شهور . ولنلاحظ ذلك الاحتياط فى الحرب حتى لا يجد العدو الخليفة غرضا قريبًا فى متناوله يستميت فى إصابته .

ولنلاحظ تشبيه الخليفة بنظام العقد الذى يمسكه أن ينتثر .

ولنلاحظ الوجازة ، والنصاعة ، والبلاغة « العلوية » ، ومستواها فى لسان العرب .

ولما قبل الصديق والفاروق نصيحته فى الحالين وضعته النصيحتان فى موضعه معهما ومن المسلمين – وهو فى صدر شبابه – فى الصدارة .

ولا ينال من هذه العبقرية فى وضع الخطط ، ما سيصيبه والمسلمين معه ، يوم يستحبون الدعة ، بعد ربع قرن عندما آلت إليه المقاليد ، وجاء إلى الوجود جيل جديد ، فعلت الفتن فيه أفاعيلها . فأتاحت لعلىّ بدلاً من إنفاذ خططه ، أن يلقى خطبه الخالدة التى تعتبر مصادر للبلاغة العربية والحكمة السياسية والفلسفية على مرّ الزمان . فتخصّ الإمام بمقام بين خطباء التاريخ لا يرقى إليه أحد .

* * *

عهد الصديق لعمر فكان عهده له فتحًا من الفتوح على أبى بكر والأمة ، منذ كان عمر كأبى بكر مطلوبين للأحداث ، ولم يكن لدى المسلمين ساعة لِيَشْتَوِرُوا . فأرواح الشهداء تساقط فى الميادين ، فى الشرق والشمال ، بالعراق والشام ، لتضىء العالم بأنوار الإسلام .

ولايمكن أن يَرِدَ على الذهن أن أبا بكر، فى عهده لعمر، فكّر لحظة واحدة تفكير بعض قريش فى أن تصرف الخلافة عن بنى هاشم ، مخافة أن تبقى وراثة فيهم ، فلا تنال قريش حظوظها من السلطة . فإنما كانت هذه الفئة فى فكرها ظالمة لنفسها ولبنى هاشم ، بمثل ما قد طالما ظلمت الصديق والفاروق معًا .

فلقد عهد الفاروق لعلىّ بين الستة الذين عهد إليهم أن يختاروا للمسلمين من يبايعونه . وهو القائل عن علىّ : « لو ولّوه لحملهم على الجادة » . وكان الجميع يعلمون أن الخلافة دائرة بينه وبين عثمان .. ولم يشأ عمر أن يحمل مسئولية الاختيار - وهو طعين - وكانت المشورة ممكنة ، لا خطرة ، كما كانت عند وفاة أبى بكر .

ولما جاء دور علىّ - وهو طعين - لم يفكر فى أن يعهد لواحد من بنى هاشم . بل قيل له : « إن فقدناك - ولا نفقدك - هل نبايع الحسن ؟ » فأجاب : « لا آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر » . وترك الأمر شورى للمسلمين .

وكذلك ليس من الدقة أن يستنتج من تقدير عمر لعلىّ أو لأهل البيت أو لأم كلثوم بنت على - وهى تحت جناح عمر - أن عمر كان يتمنى شيئًا خاصا لعلىّ فى صدد الخلافة . فلقد كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين أجمعين ، يوم عهد إلى الستة أن يختاروا واحدًا منهم يبايعه المسلمون ..

كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين يوم دوّن الديوان . فدعا الأخ الأكبر لعلىّ ، عقيل بن أبى طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وقال لهم : « اكتبوا الناس على قدر منازلهم » فكتبوهم مبتدئين ببنى هاشم ثم ببنى تيم - قبيلة أبى بكر - ثم بنى عدى - قبيلة عمر - فقال : « وددت أنه هكذا ولكن ابدءوا بقرابة النبى - ﷺ - الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله » .

ويوم فضل بعض الناس فى العطاء جزاء ما قدموا للإسلام . فلما ذكر له صنيع أبى بكر يوم رفض التفضيل وقال : « إنما أسلموا لله . ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك فى الآخرة . وإنما هذه الدنيا بلاغ » أجاب عمر : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه .. » .

ويوم فضل أهل بدر على من عداهم . ثم جعل الباقين درجات . ومع ذلك قدّم الأدنين من رسول الله دون نظر إلى جهاد أو سابقة إسلام . ففرض للعباس - عم النبى - اثنى عشر ألف درهم . ولأخته صفية عمة النبى وعلى -

ستة آلاف .. ولكل واحدة من زوجات النبي عشرة آلاف . وميّز عائشة لمحبة رسول الله إياها فجعل لها اثنى عشر ألفًا .

ويوم فضل الحسن والحسين إذ فرض لكل واحد شهد بدرًا خمسة آلاف ، ولأبنائهم ألفين ألفين ، إلّا الحسن والحسين ابنى علىّ من فاطمة الزهراء ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله . ففرض لكل منهما خمسة آلاف ..

حتى أسامة بن زيد بن حارثة - مولى الرسول - فرض له أربعة آلاف . وأجاب ابنه عبد الله - فقيه المسلمين ومحدثهم - إذ راجعه قائلا : « فرضت لى ثلاثة ولأسامة أربعة . وقد شهدت ما لم يشهد أسامة » فقال لابنه : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله منك . ولأن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك ».

وعبد الله أخ شقيق لحفصة أم المؤمنين .

ولما فرض لعمر بن أم سلمة - أم المؤمنين - أربعة آلاف ، وكان من شيعة علىّ ، استعتب البعض الخليفة لحداثته فأجاب : فليأتنى الذى استعتب بأم مثل أم سلمة أعتبه » .

وأم المؤمنين أم سلمة أعلى الأصوات فى الدفاع عن علىّ .

ولقد كان عمر صادقًا يوم عدل إلى رأى أبى بكر وقال : « لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأوّلهم ولأجعلنهم رجلا واحدًا »[1] .

وجرى قضاء الله بأن يطعن أبو لؤلؤة المجوسى عمر فى المسجد فبعث عمر

---

(١) ربما أوضح أن المال - بالنسبة للصحابة رضوان الله عليهم - لم يكن وسيلة للثراء وإنما كان حقًا لهم يجىء من بيت المال ، لينفقوه فى وجوهه ، ومساعدة المحتاجين ، أن أم المؤمنين زينب بنت جحش تصدقت بالمال كله . وتمنت أن تموت قبل أن يحول الحول . فاستجاب لها ربها فكانت أسرع زوجات الرسول لحوقًا به . وأن أم المؤمنين عائشة لم ترض أن تنماز عن أمهات المؤمنين . وأن أموالهن كانت تجرى إلى المسلمين .

وروى الطبرانى وأبو نعيم عن خزيمة بن أوس قال : قدمت على النبى يوم تبوك فسمعته يقول هذه الحيرة قد رفعت إلى ، وإنكم ستفتحونها . وهذه الشياه بنت نفيل الأزدى على بغلة سوداء معتجرة بخمار أسود - فقلت : يارسول الله . إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهى لى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « هى لك » . فأقبلنا مع خالد نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشياه على بغلة سوداء معتجرة بخمار أسودفتعلقت بها وقلت : هذه وهبها رسول الله لى .

فطلب منى خالد البينة. فأتيته بها. فسلمها لى. ونزل إلينا أخوها عبد المسيح فقال لى: أتبيعنيها؟=

إلى قوم كانوا يجلسون بين منبر الرسول وقبره من يقول : يقول لكم عمر : أنشدكم الله . أكان ذلك عن رضا ؟ فتلكأ قوم . فقال على : « وددنا أنا زدنا فى عمره من أعمارنا » - هكذا أصاب البعض الحصر . وواتت عليًّا الإجابة المواسية . وهى يقين عند عمر .

أوصى عمر أن تكون الخلافة لواحد من الستة الذين مات النبى وهو عنهم راض . ثم اختاره الله إلى جواره . واجتمع أصحاب الشورى وأدار المداولات عبد الرحمن بن عوف ، مذ أعلن أنه لن يكون له فى الخلافة أرب . واستجوب الناس حتى استيقن من تحقيقاته أن لكل من علىّ وعثمان مؤيدين فى جماعة المسلمين - فرقى المنبر وجلس مجلس النبى وأخذ بيد علىّ وقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟

قال علىّ : اللهم لا . ولكنى أحاول من ذلك جهدى وطاقتى .

فأرسل عبد الرحمن يده وقال : هلم إلىّ ياعثمان . فأخذه بيده وقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر . قال عثمان : اللهم نعم ..

قال عبد الرحمن : اللهم اشهد .. اللهم اشهد .. وبايع عبد الرحمن عثمان . وقام الناس فبايعوا .. وفيهم علىّ بن أبى طالب .

وظاهر أن فيصل التفرقة بين الجوابين هو قول علىّ : أحاول جهدى وطاقتى وهو جواب رجل طالما حاول جهده وطاقته للنبى ، ولأبى بكر وعمر . كما صنع أبو بكر وعمر ، وكما سيصنع علىّ فى خلافته وسيصنع عثمان فى خلافته . فلا عليه إن أجاب ذلك الجواب الفقهى ، الصادق . من كل وجه . لكن السماء لم ترد أن يرضى ذلك الجواب عبد الرحمن ، لتكون الخلافة يومئذ لعثمان ابن عفان ، باختيار من المسلمين ، فى حدود ما قدرته السماء . وكان فى المسلمين يومئذ شبه إجماع على أن الخلافة آيلة إلى علىّ بحكم سنه .

= قلت . نعم . قال : احتكم . قلت : لا أبيعها بأقل من ألف درهم . فدفعها . فقيل لى : لو قلت مائة ألف لدفعها ! قلت : لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم . قال الطبرانى : وبلغنى أن البينة كانت محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر .

الفصل الثانى

أبُو الشهَداء

« هذان ابناى وابنا بنتى . اللهم إنى أحبهما . فأحبهما . وأحب من أحبهما » .

« حديث شريف »

هما ريحانتاى من الدنيا .

« حديث شريف »

مضت سنوات ست على عثمان فى الخلافة وهو راض مرضىّ يحدر إلى الثمانين أو منها ، أعقبتها ست أخرى ، منها أربعة تتناهى إلى سمعه فيها وشوشة الشكوى من كل صوب . ومنها اثنتان يتعالى فيهما تشويش المشوّشين ممن لا يصبرون . ومراجعة الذين يتحملون المسئولية معه : غاضبه عبد الرحمن ابن عوف الذى اختاره للمسلمين . وغضب هو على عبد الله بن مسعود وعلى أبى ذر - أصدق الناس لهجة - وعلى عمار بن ياسر ، الذى واعده الرسول وأباه وأمه على الجنة . وهذان الأخيران ، منذ انفجر فجر الإسلام ، شيعة علىّ .

أما ابن مسعود فهو القائل يوم اختيار عثمان : بايعنا أفضلنا ولم نأل . وأما عبد الرحمن فقد أوصى لعثمان بين أهل بدر . ولما مات أخذ نصيبه .

ونفى عثمان أبا ذر من المدينة إلى الرَّبذة[1] أو نفى أبو ذر نفسه ، احتجاجًا

(١) قرية على مبعدة ثلاثة أيام من المدينة .

على ما صار إليه أمر معاوية وعثمان .

فى هذه الفترة الأخيرة اجتمع الناس فتذاكروا الأحداث ، وكلّفوا عليًّا أن يكلّم عثمان كما روى الطبرى فى أحداث سنة ٣٤ . وعلىّ وعثمان صهران للرسول : الأوّل فى زهراء الرسول والثانى فى ابنتى الرسول .

والرسول يقول وهو يزوّجه : « لو كنّ عشرًا لزوجتهن عثمان » . ونصح علىّ عثمان أغلى النصيحة ، وأجابه عثمان بمبرراته فى تعيين الولاة من أهله ، ومما قال : « إن معاوية عينه عمر » . قال على : « لكنه كان أخوف له من خادمه يرفأ » .

واستمر الناس فى ضيقهم بالأمور ، حتى إذا كان الموسم حجّ الولاة فجمعهم عثمان للمشورة فكانوا معاوية بن أبى سفيان « الشام » وسعيد بن العاص « الكوفة » وكلاهما ابن عم لعثمان[1] . وعبد الله بن سعد بن أبى سرح « مصر » وهو أخو عثمان من الرضاع . وعبدالله بن عامر « البصرة » وهو ابن خال عثمان[2] فلما انصرفوا إلى أقاليمهم ردّ أهل الكوفة سعيد ابن العاص ، وطلبوا أن يتولّى عليهم أبو موسى الأشعرى ، فولّاه عثمان وأرسل المصريون فى سنة٣٥ وفدًا للعمرة يناظرون عثمان فى سياسة ولاته وكان

---

(١) كان أبو سفيان إحدى تبعات معاوية، أرسل معه من دمشق أموالا وأغلالا إلى عمر ليظهره على الأغلال التى كان أسارى المسلمين مقيدين بها فى حصون الروم . فلما رجع أبو سفيان إلى المدينة ذهب إلى عمر بالأغلال ولم يذهب بالمال . فسأله عمر : أين المال ؟ قال : كان علينا دين ومئونة ولنا فى بيت المال حق . فإذا أخرجت لنا شيئا ؟ قال عمر : اطرحوه فى القيود حتى يأتى بالمال .. فأرسل أبو سفيان فجاء بالمال .

(٢) عبد شمس أخو هاشم جد النبى . وهما ابنا عبد مناف . ولعبد شمس بنون : منهم حبيب جد عبد الله بن عامر .

ومنهم أمية أبو حرب والد أبى سفيان ، والد معاوية .

ومنهم أبو العاص وله أبناء منهم عفان أبو عثمان . والحكم أبو مروان . ومروان كاتب عثمان ومنهم أبو عمرو وله أبناء منهم أبو معيط جد الوليد بن عقبة الذى جده عثمان للخمر ، وهو وال له . ومنهم العاص أبو سعيد أحد ولاة عثمان .

ومنهم أبو العيص جد عتاب بن أسيد عامل النبى على مكة . حيث ولى النبى أعداءه السابقين ولم يول أهله .

علىّ ومحمد بن مسلمة رسولى السلام بين الخليفة وبين الناس[1] .
وانضم بعض أهل المدينة إلى الناقدين فى نقدهم . وعنفوا على عثمان بالمسجد . فقنع بالبقاء فى داره . وأحاط القوم بالدار .

وأقبل بعض بنى أمية يحرسونها ، لكن الحراسة الحق كانت حراسة أبناء الصحابة : الحسن بن علىّ ، والحسين بن علىّ . وعبد الله بن عمر ومحمد ابن طلحة وعلى إمرتهم عبد الله بن الزبير إذ عينه الخليفة . وأمر الرجال ألّا يحاربوا أحدًا . ولم يخرج الخليفة للحج وأمّر عليه عبد الله بن العباس .

ولم يقدم للحج أحد من ولاة عثمان هذا العام ، فلم يكن ذلك مفهومًا لأحد ، إلّا أن يكون تقصيرًا من الولاة .. وليس فى المدينة جند . فهى كما يقول الرسول « حرم آمن » . وإنما الجند فى الأقاليم وبخاصة فى الشام حيث معاوية .

ولما تلا ابن عباس خطاب الخليفة على الحجيج لم يخفوا لنصرته .. وأصبح عثمان صائمًا غداة ليلة ، وبقى يحدث الحرس ألّا يقاتلوا . حتى أقبل الثوار وقتلوه .

* * *

اجتمع أصحاب الرسول بعد مقتل عثمان يشتورون ، وفيهم طلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام ، فأتوا عليًّا وقالوا : لابدّ للناس من إمام . فقال لهم والضيق يغلب على نفسه : « لا حاجة لى فى أمركم . فمن اخترتم رضيت به » . قالوا : ما نختار غيرك . وألحوا . وهو يرفض ويقول : « لأن أكون وزيرًا خير من أن أكون أميرًا » . قالوا : والله ما نحن منصرفين عنك حتى نبايعك .

ولما رأى إلحاح القوم خرج إلى المسجد وبايعه الناس . فصعد المنبر وقال : « أيها الناس . عن ملأ وأذن . إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلّا من

---

(١) راجع مالك بن أنس إمام دار الهجرة للمؤلف طبعة دار المعارف حيث تفصيل أكثر للخلاف بين أهل المدينة وعثمان .

أمرتم . وقد افترقنا أمس على أمر ، وكنت كارهًا لأمركم ، فأبيتم إلّا أن أكون عليكم . ألا وإنه ليس لى دونكم إلّا مفاتيح أموالكم معى . وليس لى أن آخذ درهمًا دونكم » .

وفرق أمير المؤمنين عماله فى الأمصار ، وتوقف بعض الناس فى بعض الأمصار ، فجمع رجلى شوراه ، طلحة والزبير ، فقال : « إن الأمر الذى كنت أحذركم قد وقع ، وافترق المسلمون وسأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدواء الكى » . وكتب إلى الأمصار فأجمعت الطاعة إلّا معاوية ابن أبى سفيان بالشام . حبس رسول أمير المؤمنين إليه ثلاثة أشهر ، ثم بعث بردّه يصدّره بقوله : من معاوية إلى علىّ . كأنه ندّ له ! بل طالبه فيه بدم عثمان . كأنما علىّ هو الذى قتله ! وكأنما معاوية صاحب دمه ! وهو واحد من تاركيه بالمدينة ، للثوار ، بلا نجدة ! وعبأ معاوية جيشه لقتال علىّ .

وفيما كان علىّ يتجهز لقتال معاوية أتاه الخبر أن طلحة والزبير قد نقضا البيعة وأنهما ، ومعهما أم المؤمنين عائشة وأهل مكة ، خالفوه ، وخرجوا عليه ، قاصدين إلى البصرة ، فنهد للحرب . وكانت وقعة الجمل حيث انتصر ، وذكر يوم ذاك الزبير بقول النبى للزبير : « لتقاتلنه وأنت ظالم له » فترك الزبير حربه ، وندم طلحة قبل أن يستشهد .

ثم رجع أمير المؤمنين يسوى حسابه مع جيش الشام بقيادة معاوية ، وتلاقى الجيشان فى صفين[1] وفيها استشهد عمار بن ياسر ، وهو فى التسعين من العمر . وفيه قول الرسول : « تقتلك الفئة الباغية » . وهو حكم على جيش معاوية .

أما أمير المؤمنين يومئذ ففيه يقول ابن عباس جوابًا لرجل سأله : أكان علىّ يباشر القتال فى صفين ؟ : « والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه فى متلفة مثل علىّ ، رضى الله تعالى عنه . ولقد كنت أراه يخرج حاسرًا عن رأسه بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله » .

---

(١) شهد صفين مع علىّ ألفان وثمانمائة من الصحابة .. منهم سبعة وثمانون من أهل بدر وتسعمائة من الأنصار ومن بايعوا بيعة الرضوان .

تراءت بشريات النصر للبطل الذى تعوّد النصر ، فرفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله بينهم ، فأبى علىّ أن يحارب والمصاحف مرفوعة . وتمت خدعة التحكيم باختيار معاوية عمرو بن العاص حكمًا يمثله ، واختيار أصحاب علىّ أبا موسى الأشعرى ، وخديعة عمرو لأبى موسى . إذ راوده على أن يخلع كل منهما صاحبه ويتركا الأمر للمسلمين يختارون من يشاءون . فقبل - ثم قدّم عمرو أبا موسى فخلع صاحبه . فلما جاء دور عمرو ثبت صاحبه ...!

وخرج من أصحاب علىّ جماعة لقبوله التحكيم فيما هو حق له . فحاربهم وانتصر عليهم فى « النهروان » وأطلق عليهم المسلمون اسم « الخوارج » .

وأخذ يعبئ جنده لمنازلة جيش الشام ، وبدا على جنده آثار التعب من القتال ، وعلى جيش معاوية آثار شرائه للرجال . وانقسم المسلمون فهذا حزب علىّ . وهذا حزب معاوية ! والذين عاصروا الإسلام منذ ظهوره ، كالذين درسوه والذين صدقوا فيه ، يفهمون المرارة فى قول أمير المؤمنين : « أنزلنى الدهر حتى قيل علىّ ومعاوية !» .

رضى الله عن أمير المؤمنين وأرضاه . فما كان ذلك ليقع إلّا فى آخر الزمان الذى قدره الله للخلفاء الراشدين[1] . وفى آخر الأيام التى قدرها الله لحياته .

لقد طعنه عبد الرحمن بن ملجم فى السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ ، باتفاق بينه وبين زميلين من « الخوارج » أن يقتلوا عليًّا ومعاوية وعَمرًا .

---

(١) أما أهل السنة فيمثل رأيهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل إذ سئل من الخلفاء ؟ وأجاب : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . قال السائل : فمعاوية ؟ قال أحمد : « لم يكن أحد أحق بالخلافة فى زمن علىّ من علىّ . ورحم الله معاوية » . ولما ذكر عنده سير عائشة مع طلحة والزبير قال : فكرت فى طلحة والزبير ، أهما كانا يريدان أعدل من علىّ بن أبى طالب ؟ رضوان الله عليهم أجمعين - وجاءه يومًا جماعة فأكثروا القول وأطالوه فى خلافة علىّ فرفع إليهم رأسه وقال : إن الخلافة لم تزين عليًّا ولكن عليًّا زينها .

ومثل الشافعى رأى المسلمين عندما قال رجل : « ما نفر الناس من علىّ إلّا لأنه كان لا يبالى بأحد » فبهته الشافعى بقوله : « كان له أربع خصال لا تكون واحدة منها لإنسان إلّا ويحق له ألّا يبالى بأحد : أنه كان زاهدًا ، والزاهد لا يبالى بالدنيا وأهلها . وكان عالمًا ، والعالم لا يبالى بأحد . =

فأصيب معاوية فى عجزه . ولم يصب عمرو إذ لم يخرج للصلاة وأناب نائبًا عنه فقتل .

أمر معاوية بالرجل فقتل ، وأمر عمرو برجله فقتله . لكن أمير المؤمنين أمر باستبقاء قاتله قائلًا - وهو الطعين المشرف - إنه إذا عاش فهو ولىّ دمه . وإذا مات فإنه ينهى عن المثلة . ليعلّم الناس الدين ، كمثل ما علّم العالم جميعه « قوانين الحرب والسلام » فى حروبه فى « الجمل » سنة ٣٥ ، و « صفين » سنة ٣٦ ، و « النهروان » سنة ٣٧ . فتداولتها المذاهب الأربعة لتقدمها هدية من فقه الإسلام للقوانين المعاصرة .

ومات أمير المؤمنين بعد يومين عن ٦٥ أو ٦٣ عامًا ، وأربعة أعوام وتسعة أشهر ويوم واحد فى خلافةٍ كلها معارك .

ولما مات لم يوجد بخزائنه إلّا ستمائة درهم استبقاها ليشترى بها خادمًا . بل - وكما لخص حياته سفيان الثورى - « ما بنى لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وإن كان ليؤتى بحبوته فى جراب » . الحبوة الخراج .

وكما يقول محمد بن كعب القرظى : « سمعت علىّ بن أبى طالب يقول : لقد رأيتنى وأنا أربط الحجر على بطنى من الجوع وإن صدقتى لتبلغ ذلك اليوم أربعة آلاف دينار » .

= وكان شجاعًا ، والشجاع لا يبالى بأحد . وكان شريفًا ، والشريف لا يبالى بأحد » .

وأما الخوارج على جيشه فكانوا ثمانية آلاف دعاهم ليزيل شبهتهم . فأبوا أن يجيئوه إلّا أن يقر بالكفر على نفسه ثم يتوب ، فحاربهم ونصره الله عليهم . ثم حاربوا الأمويين والعباسيين . ومع تكفيرهم الكثيرين من جمهور المسلمين بدعوى التهاون فى الدين فالمسلمون لا يكفرونهم لأنهم متأوّلون . وأمير المؤمنين علىّ يعلم المسلمين ذلك بقوله عنهم : « إخواننا بغوا علينا » .

وفقه علىّ فى معاملة العدو وفى الحرب عنوان على علم الإمام وحلمه . فهما من علم النبى وحلمه . إذا كانت هند بنت عتبة « أم معاوية » مثلت بجثة أسد الإسلام حمزة يوم أحد ، وقال النبى يوم ذاك « ما وقفت موقفًا قط أغيظ لى من هذا » فلما جاءه يوم فتح مكة « وحشى » قاتل حمزة اكتفى بقوله : « ويحك غيب عنى وجهك » . وقال يوم ذاك لهند بنت عتبة ، آكلة الأكباد : « مرحبًا بك » . وقال للأعداء : « أنتم الطلقاء » ، فلقد صنع على صنيعه « يوم الجمل » عندما ظفر بابن الزبير فاكتفى بأن قال له : « لا أرينك بعد اليوم » وظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه . وظفر بأهل البصرة فصفح الصفح الجميل .

ولما قال معاوية لضرار من ضمرة : صف لى عليًّا ، قال فيما قال : كان بعيد المدى ، شديد القوى . يقول فصلاً . ويحكم عدلاً . يتفجر العلم من جوانبه . وتنطق الحكمة من لسانه . يستوحش من الدنيا وزهرتها . ويستأنس بالليل ووحدته . وكان - والله - غزير الدمعة ، طويل الفكرة يعجبه من اللباس ماقصر ، ومن الطعام ماخشن . وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه . ويبتدئنا إذا أتيناه .. ونحن - والله - مع تقريبه لنا ودنوّه منّا لا نكلّمه هيبة له .. لا يطمع القوىّ فى باطله ولا ييْئس الضعيف من عدله .. يبكى بكاء الحزين ويقول : يادنيا إلىَّ تعرضت أم إلىَّ تشوفت . فهيهات ، هيهات . غرِّى غيرى » .

* * *

بايع المسلمون الحسن بن على أميرًا للمؤمنين . فخرج بجيش قوامه أربعون ألفًا للقاء جيش معاوية . وتخاذل جنده كهيئة تخاذل الجند بين يدى أبيه . وجرت البُرد بينه وبين معاوية فأحدث بينه وبين معاوية صلحًا بعد خلافة دامت ستة أشهر وخمسة أيام « لعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » . فذلك قول جده عليه الصلاة والسلام .

ودخل المتصالحان الكوفة . فسُمِّى البعض عامهما هذا عام الجماعة . وأسماه الجاحظ (عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة) .

حدث الشعبى قال : شهدت خطبة الحسن رضى الله عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فان أكيس الكيس التقى . وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه ، إن كان له فهو أحق به منى ، وإن كان لى فقد تركته إرادة لإصلاح الأمة وحقن دماء المسلمين . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » .

ورجع الحسن إلى المدينة . وعوتب على صلحه فقال : « اخترت ثلاثًا على ثلاث . الجماعة على الفرقة ، وحقن الدماء على سفكها ، والعار على النار » .

وليس بغير هذا يتكلم الحسن . فلقد كان رجل عبادة وسلام للناس . خرج

من ماله مرّتين . وقاسم الله ثلاث مرات . وحج عشرين حجة ماشيًا من المدينة إلى مكة وكان من شروط الصلح أن يكون الأمر للشورى بعد معاوية .

وفى ربيع الأوّل سنة ٤٩ هـ . شعر بالسم يسرى فى جسده لتبدأ به سلسلة أئمة أهل البيت الذين يموتون مسمومين على أيدى بنى أمية وبنى العباس . فأوصى للحسين . وقال : « إذا متّ فادفنى مع جدى ما وجدت لذلك سبيلا » .

لكن مروان بن الحكم والى معاوية على المدينة منع من تنفيذ الوصية ، فدفن الحسن بالبقيع . وسيدفن معه فى قبره أئمة أهل البيت الرابع والخامس والسادس . فأكرم به قبرًا : فيه أمير المؤمنين الحسن ، وعلى زين العابدين - بن الحسين - وابنه محمد الباقر وابن الباقر : « جعفر الصادق » .

* * *

لما مات الحسن كبر أهل الشام : فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية . أعلى موت ابن فاطمة تكبر ؟ قال : ما كبرت شماتة بموته ولكن استراح قلبى .

وقال له ابن عباس : والله يا معاوية لا تسدّ حفرته حفرتك ولا يزيد عمره فى عمرك ..

وطلب معاوية البيعة لنفسه من محمد بن مسلمة الفدائى الثانى من أصحاب الرسول - إذ علىّ الفدائى الأول[1] - فقال له : « لعمرى يامعاوية ما طلبت إلّا الدنيا ولا اتبعت إلّا الهوى ، ولئن كنت نصرت عثمان ميتًا لقدخذلته حيًّا . ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب » .

---

(١) أوّل عمل فدائى فى الإسلام قام به علىّ ليلة نام فى فراش النبى .

ومحمد بن مسلمة هو الرجل الثانى فى هذه المدرسة . سمع الرسول يقول - فى المدينة - من لكعب ابن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله - وكان كعب يؤذى المسلمين بهجائه ويحرض قريشا عليهم - فقام محمد بن مسلمة فقال : يارسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لى أن أقول شيئا « مما يتقرب به إلى كعب وهو بحسب الظاهر طعن فى الإسلام » قال النبى ؛ قل ما بدا لك - فأتاه محمد بن مسلمة فى نفر من الأنصار منهم أبو نائلة أخو كعب من الرضاع .

قال ابن مسلمة : ياكعب إن هذا الرجل « يعنى النبى » قد عنانا بالصدقات وإنى قد أتيتك استسلفك . قال كعب : والله لتملنه . قال ابن مسلمة : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر ما يكون من شأنه . وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين . قال : فارهنونى أبناءكم . قال ابن مسلمة : كيف =

ولما دخل سعد بن أبي وقاص على معاوية قال : السلام عليك أيها الملك . قال معاوية : ما كان عليك ياأبا إسحق إن قلت أمير المؤمنين ؟

كتب معاوية إلى عماله بنسخة واحدة « انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليًّا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه » وأمر من يأتمرون بأمره ألّا يرووا أحاديث فضائل عليّ وشيعته ، ثم تمادى ، فكلّف ولاته أن يلعنوا عليًّا ومن أحبه على المنابر . فكتبت إليه أم المؤمنين أم سلمة تقول : « إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم لأنكم تلعنون عليًّا ومن أحبّه وأشهد أن رسول الله ﷺ أحبّه » .

= نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين . نرهنك السلاح . فقبل ... وتواعدوا على الليل حتى جاءوه فنزل إليهم من حصنه فضربوه بأسيافهم فقتلوه .

وكان ابن مسلمة . يسمى « فارس رسول الله » . كان على رأس مائة فارس يسبقون المسلمين طلائع لهم يوم الحديبية . واستخلفه الرسول على المدينة عندما سار بجيش العسرة ليرد الروم إلى تخوم شبه الجزيرة بعد فتح مكة .

وكان سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وفاتح العراق ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ومنهم الراشدون الأربعة . والرسول يقول عنه : هذا خالي . فليأت كل فتى بخاله ! وقد دعا له الرسول بالاستجابة لدعائه ، فكان الكل يخشى أن يدعو عليه . لكن عمر بلغه أن سعد بن أبي وقاص بنى لنفسه قصرًا وجعل عليه حاجبًا فبعث إليه محمد بن مسلمة ليحرق عليه القصر وكتب إلى سعد يقول : « بلغني أنك بنيت قصرًا اتخذته حصناً ويسمى بيت سعد .. وجعلت بينك وبين الناس بابًا . فليس بقصرك . ولكنه قصر الخبال » وصنع محمد بن مسلمة – وعاد بسعد وبالشاكين إلى عمر . فضنّ عمر بسعد عليهم ورفض أن يعيده إلى بلدهم .. وقال لعثمان : إني لم أعزله عن خيانة . ووضعه بين الستة أصحاب الشورى .

ولما دارت المكاتبات بين عمر وعمرو بن العاص . فاتح مصر – بعث إليه محمد بن مسلمة وكتب إليه يقول : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن لك حين وليت مصر » وأجاب عمرو إن أرضنا أرض زرع وشجر ونحن نصيب فضلا عما نحتاج لنفقتنا . ورد عمر : « إني خبرت من عمال السوء ما كفى وكتابك إلى كتاب من أقلقة الأخذ بالحق . وقد سؤت بك ظناً . ووجهت إليك محمد ابن مسلمة ليقاسمك مالك . فأطلعه طلعلك . وأخرج إليه ما يطاليك . وأعفه من الغلظة . فقد برح الخفاء » .

فقاسم محمد عَمرًا . وعَمرو يقول متوجعًا : « إن زمانًا عاملنا فيه ابن حنتمة « أم عمر » هذه المعاملة لزمان سوء . لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج » قال محمد : « لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكره أُلفيت معتقلا عنزًا بفناء بيتك » قال عمرو : « أنشدك الله لا تخبر عمر بقولى فإن المجالس بالأمانة » قال محمد « لا أذكر شيئًا مما جرى وعمر حى » .

ولما دانت الدنيا لمعاوية قيل له : قد بلغت ما بلغت . فلو كففت عن الرجل ؟ فقال : « لا والله حتى يربو عليها الصغير ويهرم الكبير » .

ولو عاش بضع سنين بعد عام موته لشهد انهيار دولته وانتهاء أسرته – أما الذين جاءوا بعده فسيشهدون صعود الشمس فى السماء معلنة حق علىّ ، مؤذنة بظهور أهل بيت النبى .

جعل معاوية الخلافة ميراثًا لابنه يزيد ، بالسيف على رءوس أبناء الصحابة جهرة . وبالرعب فى قلوب المستضعفين ، وبالرشى فى جيوب الآخرين ! .

أما الحسين بن علىّ فلم يستدرج ولم يستضعف وأبى أن يبايع ليزيد .

وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فقال لمعاوية كلمته الخالدة فى خلافته وخلافة ابنه ومن جاءوا بعده : إنهم جعلوها « هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل » .

وعبد الرحمن بن أبى بكر هو جدّ « جعفر الصادق » من ناحية أمه وأمها . أما الحسين فجدّه من ناحية أبيه .

وكان رأى محمد بن مسلمة وسعد بن أبى وقاص أن معاوية ، صاحب ملك .. ولكن ملك معاوية كان بصلح مشروط . فلما خرج على الشروط ، أمسى حقًا لكل مجتهد أن يقول فيه باجتهاده ، فى المرّة الأولى والمرّة الآخرة .

ولقد قال أمير المؤمنين على قوله فيه . وكشف الله لحكمة الإمام وجه الحق فيما صار إليه أمر معاوية وأمور المسلمين . فحسبنا وحسبه قول علىّ فيه – وقد أسلفناه – بل قول النبىّ لعمار عن جيش معاوية : « تقتلك الفئة الباغية » .

أما عمرو فلأئمة السُّنة فيه ما يكفيه . وحسبه قول الشافعى فيه ، حول أساطين جامعه ، حيث راح الشافعى يروى بعد قرن ونصف قرن فى « جامع عمرو » بفسطاط مصر ، دخول ابن عباس على عمرو ، وهو ابن بضع وثمانين ، وقول عمرو : أصبحت وقد ضيعت من دينى كثيرًا وأصلحت من دنياى قليلا ، فلو كان الذى أصلحت هو الذى أفسدت والذى أفسدت هو الذى أصلحت لقد فزت .. فعظنى بعظة أنتفع بها يا ابن عباس . قال ابن عباس : هيهات .. قال عمرو : ابن بضع وثمانين وتقنطنى من رحمة الله ! ثم رفع يديه

وقال : اللهم إن ابن عباس يقنطنى من رحمتك . فخذ منى حتى ترضى .

قال ابن عباس : هيهات يا أبا عبد الله . تأخذ جديدًا وتعطى خلقًا .

قال : من لى منك يا بن عباس . ما أرسل كلمة إلّا أرسلت نقيضها !

والمسلمون يتناقلون قول الشافعى فى جامع عمرو عن عمرو : قدم ابن عمامة على عمرو فألفاه صائمًا وقد أحضر إخوانه طعامًا ، وصلى صلاة فأتقنها . ثم أتى بمال فأمر بتفريقه . قال ابن عمامة : يا أبا عبد الله واتاك مال أنت به أحق من غيرك ففرقته . بم ذاك يا أبا عبد الله ؟ قال : ويحك يا ابن عمامة فلو كانت الدنيا مع الدين أخذناها وإياه . ولو كانت تنحاز عن الباطل أخذناها وتركناه . فلما رأينا ذلك كذلك خلطنا عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسى أن يرحمنا الله .

وسمع العالم الشافعى فى جامع عمرو يهتز تحنانًا إلى أبناء علىّ فى الحجاز فينشد :

ياراكبًا قف بالمحصب من منى	واهتف بقاعد خيفها والناهض
.....	.....
إن كان رفضًا حب آل محمد	فليشهـــد الثقـلان أنى رافضى

ريحانة النبى فى كربلاء :

انتهى عصر معاوية بعد خلافة طالت تسعة عشر عامًا وثلاثة أشهر وخمسة أيام[1] ليبدأ عصر يزيد (٦١ - ٦٤) فكان أفسد حكم . وقع فيه أفظع ظلم . وأعمق جرح فى قلوب أهل الإسلام . أنهاه الله بإنهاء عمره وانقطاع عقبه

---

(١) بنو أمية : معاوية : ٤١ - ٦٠ « يزيد » ٦٠ - ٦٤ « معاوية بن يزيد » ثلاثة أشهر فى سنة ٦٤ .

بنو مروان :	مدة الخلافة :
مروان بن الحكم :	٦٤ - ٦٥
عبد الملك بن مروان مدة الخلافة :	٦٤ - ٨٦ =

وعقب أبيه من سجل الدولة التى سعيا لها كل ذلك المسعى !

فسيخلفه ابنه معاوية بن يزيد . فيعلن أنه وأهله لا يستحقون الخلافة . ويعتزل بعد نحو أشهر ثلاثة . فكان اعتزاله من تلقاء نفسه وعباراته . وهو يعتزل ، شهادتين بالفعل وبالقول ، من نفس بنى أمية . بأنهم جائرون .

أنهى يزيد سنوات حكمه بتجريد جيش على المدينة يسفك دمها ، وينتهك حرمها ، فى وقعة الحرة سنة ٦٣ ، ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول . فلم يبق بعدهم على ظهر الأرض بدرى واحد ! وقتل من قريش والأنصار ثمانمائة ! ومن الموالى والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف ، ثم لفظ آخر أنفاسه وجيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها ! وأىّ نهاية لبشر أفظع من هذه النهاية ! بل أى نهاية لدولة أبلغ فى الدلالة على غضب السماء عليها !

فما كان حرق الكعبة ولا قتل الصحابة وتذبيح الآلاف إلّا تتابعًا للأحداث التى بدأ بها السنوات الثلاثة . وختامًا طبيعيًّا للبداية المفظعة لحكمه . وجزاء له ولدولته . ينزله بها وبنفسه .

لقد استفتح حكمه بجريمة كربلاء فى يوم عاشوراء ! فى العاشر من المحرم سنة ٦١ . فوقع فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، مثله أو قريبًا منه ، من استشهاد أبى الشهداء : الحسين بن على الذى دعا له النبى : « اللهم إنى أحبّه .. فأحب من يحبه » ، والذى عظّمه الخلفاء الراشدون والناس جميعًا على مدار العصور . وهو القدوة فى عطائه وعبادته وتواضعه وشجاعته فى كل موقف :

= الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة : ٨٦ – ٩٦

سليمان بن عبد الملك مدة الخلافة : ٩٦ –٩٩

عمر بن عبد العزيز بن مروان مدة الخلافة : ٩٩ – ١٠١

يزيد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٠١ – ١٠٥

هشام بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٠٥ – ١٢٥

الوليد بن يزيد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٢٥ – ١٢٦

يزيد بن الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٢٦

إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٢٦

مروان بن محمد بن مروان مدة الخلافة : ١٢٧ – ١٣٢ هـ أو ٧٥٠ م

فى « الجمل » و « صفين » و « النهروان » إلى جوار أمير المؤمنين علىّ وفى غزو أفريقية . وخراسان . وجرجان . والقسطنطينية . متصدرا جيوش المسلمين فى عهد معاوية .

كان بقية الرسول ﷺ . وكانت آمال الأمة فيه آمالها فى بقية الرسول .

وكان أبعد الناس عن أن يستخلف على المسلمين يزيد : يزيد الصقور ، يزيد الخمور كما لقّبه معاصروه . فلم يكن أحد ليأمل شيئًا من عهد يزيد ، إلّا دنيا يصيبها أو أموالًا يجمعها . ولذلك رفض الحسين أن يبايعه .

ودعا أهل الكوفة الحسين إليهم فبعث قبله مسلمًا ابن عمه عقيل . وخرج فى أثره . فقتل عبيد الله بن زياد والى الكوفة مسلمًا . وتخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين . فمضى حتى بلغ « كربلاء » على مبعدة خمسة وعشرين ميلًا من الكوفة وفى ركبه ثمانية عشر رجلًا من أهل بيته وستون من شيعته .

هنالك لقيهم جيش عبيد الله بن زياد ، على رأسه عمر بن سعد والى عبيد الله على الرى ، فأعلن لهم الحسين أنه لا يريد الحرب ؛ وخيّرهم بين ثلاث : « أن تتركونى ألحق بيزيد . أو أن أعود من حيث جئت . أو أمضى إلى بعض ثغور المسلمين فأقيم فيها » ورفض ابن زياد إلّا أن ينزل الحسين على حكمه ، أى أن يستسلم ليصير أسيرًا لابن زياد ويزيد ! ليصنعا فيه ما صنعاه بأهل المدينة ، بعد عامين ، من استرقاق الرجال والنساء .

وحاول ابن بنت رسول الله أن يسير بأهله فى أرض الله الواسعة ، فسدّت الجيوش أمامه كل مخرج !، وانقضتْ عليه سهام الآلاف وسيوفهم ، وهو يحارب كالأسد . وتسيل جراحات جسمه وهو فى السابعة والخمسين حتى استشهد[1]

---

(١) كان المحرض على قتل الحسين وأهل البيت شمر بن ذى الجوشن رقيب ابن زياد على قائد الجيش . أما قاتل الحسين فالتاث عقله ، وحمل الرأس الكريم إلى فسطاط القائد فصاح فى وجهه – وهو مراقب من شمر بن ذى الجوشن – أتشهد أنك مجنون . وحذفه بقضيب . فلقد كان المجنون يصبح والرأس فى يده :

أوقر ركابى فضة وذهبا ... فقد قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أمًّا وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبًا

واستشهد رجال أهل البيت جميعًا . والرجال الستون الذين يتألف منهم ركبه ، إلّا غلامًا مريضًا عاجزًا أن يتحرك هو ابنه زين العابدين « على بن الحسين » ! وساق المجرمون الحريم . وجهز عبيد الله بن زياد . زينب بنت على[1] وهذا الابن الوحيد الباقى من ذرية النبى ، ومن معهما من الحريم مع الرأس التى طالما مسح عليها ، وقبل فاها ، رسول الله ﷺ ، إلى يزيد بن معاوية فى دمشق .

وأعاد يزيد الوفد إلى المدينة .

* * *

إن فى إنسانية البشر قابلية للفساد كهيئة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية . والإسلام لذلك يرفع الناس إلى أعلى ، إذ يدفع الأنفس إلى ما هو أقوم ، بالعبادة اليومية على مدار الليل والنهار ، وتطهير النفس على مدار العمر .

---

(١) اشتركت السيدة زينب أخت الحسين من أبيه وأمه معه فى المعركة . وكان أثرها فى مصير أهل البيت عظيمًا .

كانت زوجًا لابن عمها عبد الله بن جعفر وكان قد أذن لها فى الخروج مع الحسين فكانت تمرض المصابين فى الصفوف أثناء القتال . ولقد هم شمر بن ذى الجوشن بقتل زين العابدين ، فاحتضنته لتقتل معه ، فانصرف المجرم مذمومًا مدحورًا . ولما انتهت المعركة اقتيدت بين الأسرى إلى ابن زياد فى الكوفة وإلى يزيد فى دمشق ومعها زين العابدين تكلؤه بعناية الله على يديها لينجب ، فيتسلسل منه أئمة أهل البيت الاثنا عشر ، بل كل نسل الحسين من الرجال . وكانت مثال الشجاعة والبلاغة العلويتين فى وجه ابن زياد ويزيد .

ولما أعيد الأسرى إلى المدينة أمر يزيد بإبعادها إلى مصر فسارت إليها ، فاستقبلها أهل مصر فى بلدة بلبيس على مبعدة عشرات الأميال من الفسطاط ، وعلى رأس مستقبليها أمير مصر « مسلمة بن مخلد » فعاشت فى مصر عامًا ، ثم ماتت سنة ٦٢ . وقبرها فى الحىّ المعروف باسمها وهو من أقدم أحياء القاهرة . وعلى مقربة منها حىّ السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن . جاءت إلى مصر مع زوجها فى المائة الثانية للهجرة ، ولقيها الإمام الشافعى ، ولما مات حملت جنازته إليها فصلت عليها وقالت : « رحم الله الشافعى . إنه كان يحسن الوضوء » ويحمل اسم السيدة نفيسة حىّ معروف بالقاهرة ، كما يحمل اسم « الحسين » المسجد الأشهر بالقاهرة والحى الذى يمجد عاصمة مصر وتتعالى فيه معاهد الجامع الأزهر وغيره من آثار الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتى المماليك .

ومن الفساد ما يستغلظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر . وفى استشهاد أبى الشهداء آية من الآيات .

كانت كربلاء قارعة رجّت الأرض رجًّا يعيد الإسلام غضًا فى الأنفس ، بما كان فيها من التصميم والإجماع على الاستشهاد فى سبيله .

لقد انقضى بين يوم وفاة النبى وبين كربلاء خمسون عامًا ، كانت ضرورية لتدهور إحساس بعض الرجال فى أجيال ، تدهورًا كافيًا ليقتلوا ابن نبيهم ! وهم يصلون عليه ! وعلى آله الذين يقتلونهم !

وحسب هؤلاء المجرمين حكمًا عليهم أن يقول لهم كبيرهم « يزيد ابن معاوية » وعيناه تدمعان : « قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين » ..

وإنما أطلق الروع دموعه ، وأنطق الفزع لسانه ، بقالة رياء فلقد كرر جنده يوم « الحرة » ما فعلوه ، منذ عامين ، فى كربلاء . كما صنعوه مرّة ثالثة إذ قذفوا الكعبة بالمنجنيق من أعلى جبل أبى قبيس . فالجريمة الأولى تدفع إلى الثانية ، فالثالثة وغيرها . والجرائم يصنعها المجرمون ، وتصنع المجرمين .

ويبقى هذا الرياء من يزيد ، صيحة استهزاء بقوم باعوا أنفسهم للشياطين . لقاء متاع قليل ، لا يلبث أن يزول . ربما لا يرضى عنه من ارتكب لأجله ، لكنه مأخوذ به ، ولو لم يرض عنه . فالقائد الظالم مسئول عما يقع من جنده . فما يظلمون إلّا بظلمه ، ان لم يظلموا بأمر صريح منه .

قالوا : كان الحسين يستطيع بالمداورة أو المناورة أن يكسب الزمن ، أو يستطيع بالاستسلام أن يكسب الحياة ، لكنه الذى قال فيه وفى أمه وأبيه وجده ، إقبال[1] :

هى بنت من! هى زوج من! هى أم من! من ذا يدانى فى الفخار أباها !

---

(١) الشاعر محمد إقبال . شاعر الهند وباكستان .

ومن قبله رفض أبوه رأى المغيرة بن شعبة أن يكسب الزمن بترك معاوية على الشام حتى يبايع . فلم يقبل عليّ أن يناور أو يكسب الزمن . وناور المغيرة فصار عاملاً لمعاوية !

الحق أن الحسين قدم للمسلمين الذين تعاقبوا فى آثاره على مدار الزمان ، حجة بالغة من أهل بيت الرسول . إذ ينفردون فى التاريخ بهذه الخصيصة التى لم يماثلهم ، أو يقاربهم ، فيها أهل بيت آخر فى تاريخ الإنسانية : الاستشهاد فى سبيل هداية البشر لما هو أقوم . وهى بعض خصائص الرسل .

منح الاستشهاد اسمًا لكربلاء . وخلّد الأسماء التى تساقط أصحابها كالكواكب المنتثرة من السماء فوق الصحراء ، لا لتنكدر ، ولكن لتقدّم للبشر درس الدفاع عن الحق . من فئة قليلة ، واثقة فى الحق سبحانه ، لا تهمها أرواحها ، وإنما يهمها العمل الصالح فى ذاته . ولا تنظر إلى الساعة التى هى فيها ، وإنما تمد أبصارها إلى مستقبل الإنسانية كله ، لترتفع بالدنيا إلى مستوى أفكار الأئمة .

ولقد صدق الحسين المسلمين فى كل موقف وقفه . وكان عند وصية أبيه له ولأخيه الحسن وهو يجود بأنفاسه الأخيرة : « أوصيكما بتقوى الله . ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما » فلم يبتغ الدنيا واشترى بها الآخرة .. فأمسى يقول : « إنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برما » .

وشملت السماء ابن النبى فى كربلاء بمزيد من التأييد . بمعان جليلة من جلال الإسلام ، تختار منها هنا واقعة منه وواقعة من عدوه : فى الأولى أخذ إخذ أبيه فسقى جيش العدو من العين التى نزل عندها ولم يحرم الماء قاتليه[1] . وفى

---

(١) ونعلّم عليها صلاح الدين فى حربه مع الصليبيين يوم أرسل طبيبه إلى الملك رتشارد قلب الأسد قائد الصليبيين .

وأين من قواعد الحرب الإسلامية قواعدها عند الأوربيين . إن أبقراط أبا الطب اليونانى الذى ورثت أوربة قسَمه الأشهر يقسمه كل طبيب قبل أداء واجبه بالنزاهة والأمانة وعدم التعصب - لكن أبقراط=

الأخرى ترك قائدان من القواد جيش ابن زياد ، فى وطيس المعركة ، إلى الجماعة العزلاء حول الحسين ، ليستشهدوا فى الدفاع عن سيد الشهداء . بين رجاله الذين ماتوا عن آخرهم ، وهم عليمون أنهم يخوضون معركة خاسرة بكل المقاييس التى يتقايس بها المتحاربون ، مظفرة بمقاييس المؤمنين .

ولو عاش هؤلاء الشهداء العظماء . سنوات أو أشهرًا أخرى ، لماتوا كما يموت الآخرون . لكنهم ماتوا شهداء « كربلاء » ، ليحيوا فى ضمير الزمان كله أمثالاً للحق ، وعناوين على عظمة الإسلام .

* * *

كانت كربلاء رسالة من ابن النبى للمسلمين : هى الأولى من نوعها بما تحتويه من دروس . لا تحصى ، فحسبنا أن نشير إلى البعض منها . وفى الدرس الواحد جماع دروس :

وأوّل الدروس : يتعلق بالحق ذاته . وفى الحق أعظم الدروس : ألّا يقرّ أحد الباطل . وأن يقدّم فى سبيل ذلك نفسه ، وأن يكون قدوة .

وألّا يهاب المكثورون كثرة الظلمة . فالأمم تبقى بالمقاومة ولا تصيبها الهزيمة إن فقدت معركة ، مادامت فيها إرادة النصر ، يسعى إيمانها بين يديها لتبلغ غرضها كله ، ان لم يكن من فورها ، فمرحلة بعد مرحلة .

وأوّل من تعلم على الحسين بن على درس سنة ٦١ كان عبد الله بن الزبير باستشهاده بمكة بعد أعوام عشرة ، وهو مكثور بجند عبد الملك بن مروان بعد إذ حرقوا الكعبة ، كما حرقها جند يزيد بن معاوية .

وتعلّم عمر بن عبد العزيز وعلّم المسلمين – فى مدة خلافته – أن الكلام أو الصياح ، ليس الأداة المثلى للإصلاح ، وإنما المواقف هى التى تهزّ وجدان الشعوب ، فكان له أعظم المواقف إذ بدأ بنفسه وأهله فضحى فكانت فيه الأسوة الحسنة . وكلل الله سعيه فى أقصر مدة : ثلاثين شهرًا كانت كافية

= علم الأوربين درسًا آخر حين رفض أن يعالج مرضى الطاعون فى الجيش الفارسى قائلاً : إن شرفه يمنعه من معالجة عدو لبلاده !

لإصلاح دولة أدماها نحو قرن من الفساد ، ولإسعاد أمة تنتظر القدوة من حكامها فلا تجدها .

والدرس الثانى : يتعلق بجزاء السماء وبمصاير الطغاة وطرائفهم : إنهم يحسبون الدنيا تدوم ولا تدور ، ولا يدركون أن « الدهر بالإنسان دوّارى » . كما يقول الشاعر العربى . وتركبهم شياطين الشهوة فيخالون أنهم يمسكون كرة الأرض فى قبضتهم . يصطنعون أسباب الوثوب على أعدائهم من حين لآخر ، ويتحينون الفرص المواتية ، ويختلقون الأعذار الزيوف ، ليقطعوا دابر العدو .. وكلما جدّ جيل جدّت لهم الأعذار ولم تغنهم النذر .. فالذى حاوله فريق معاوية مع علىّ فى صفين ولم يظفر به – من إفناء شيعة علىّ أو من الإطاحة بأخصائه بالسمّ من الوجود – قد أتاحته ليزيد فرصة فى كربلاء .

وللطغيان طبيعة ومنهج . ومن طبيعته أن يعمى ويصم . فلا ينظر ولا يسمع إلّا ذاته وأصواته . وأما المنهج فهو الغيلة . مرة واحدة إن أمكنه ، وإلّا فوثبة وثبة . ولكل واحدة ما بعدها .

والذى قارفه يزيد ليس مجرد سقطة وإنما كانت أم السقطات . فمن بعد كربلاء كانت وقعة الحرة ، ثم كان حريق الكعبة .. فى سنوات ثلاثة متعاقبة . فحق عليها جزاء السماء فأوردته حتفه .. والسماء تملى للظالم ، حتى إذا أخذته لم تفلته .

والدرس الثالث : يتعلق بأهل البيت أنفسهم .

١ – فهم العترة الطاهرة . يدخلون الجنة مع جدّهم ، بعملهم ، فلا يعملون إلّا العمل الأصلح . والذى صنعوه فى كربلاء هو الذى كان يصنعه جداهم . والذى صنعه أصحابهم معهم هو الذى كان يصنعه الصحابة – وأعظم به وبهم صنيعًا وصنّاعًا . فما هو إلّا صفحات جديدة يضيفونها إلى السيرة العطرة .

٢ – وهم مثل جميع المسلمين ، إن لم يكن قبل جميع المسلمين ، مطالبون بالجهاد والتضحية وليس فضلهم ليسقط التكليف عنهم . كما يزعم بعض المتصوّفة عن رجال من المتصوفين .

وهذا درس للمتواكلين الذين لا يقبل الإسلام تواكلهم .

٣ – وهم يبلغون الذروة فيما يعملون : إذا حاربوا ماتوا شهداء ، ولم يعطوا الدنية أو يستسلموا . لأن للمسلمين فيهم ، كما كان لهم فى جدّهم . الأسوة الحسنة . وفى بيتهم سمقت المبادئ الكبرى . فمنهم يطلب البلاء الممتاز . ومن هذا كان صغارهم ، كالكبار منهم ، أبطالاً يستشهدون ولا يتراجعون .

لقد أذن الحسين لصحبه فى أن يعودوا تحت جنح الليل ويدعوه وحده يواجه مصيره ، فلم يقبل ذلك واحد منهم . ولم يرجف المرجفون من خصومهم ، حتى اليوم ، بأن واحدًا منهم قد تردّد . بل قال له ابنه زين العابدين ، وهو مريض طريح على الثرى لا يقدر على الحركة : « ألسنا على الحق » ؟ قال : « بلى والله الذى يرجع إليه العباد » قال الفتى : « فإذن لا نبالى » .

والدرس الرابع : يدور حول وحدة العمل الصالح. وفيه يجتمع الحق والحقيقة فى المبدأ والمنتهى وما بينهما . فإذا كانت الحقيقة أن أبناء الرسول رجال سلم وعلم وقيادة ، فهم لا يدّارءون وراء هذه الحقيقة ، فيقعدون عن الجهاد – جنودًا – للحق ، أو يكتفون دونه بالعلم إذا دعا الداعى إلى الجهاد ، أو يوصون بالسلم حيث الحرب واجبة لإعلاء كلمة الله ، بل يستمسكون بالحق ويضعون الحقيقة كلها فى خدمته .

والحق والحقيقة والعمل الصالح كل لاينقسم . والأهداف العظيمة لا يبلغها الناس إلّا بأعمال عظيمة ووسائل سليمة .

والدرس الخامس : درس فى الواجب وأدائه فى كل الظروف. وإن وهم المطالب به أنه غير مجدٍ عليه أو على غيره – فهو لم يصبح واجبًا إلّا لأن التكليف به يحقق المصلحة العامة أو الخاصة ، إن حالّة وإن مؤجلة ، منظورة أو غير منظورة . وهو قد أصبح واجبًا لأنه فضيلة . وإذا لم يكن مجديًا فى لحظة ، أو لرجل ، ففى القيام به خير للناس ، وللدنيا ، فى الظرف ذاته أو فى ظروف أخرى .

والظروف غير المواتية لا تجعل الفضائل غير مواتية . فالفضائل مواتية أبدًا ، مطلوبة دائمًا .

وإذا كانت القدرة شرط التكليف والرخص متروكًا تقديرها للرجال ، فبالمعاناة أو التضحية ينسلخ الأقوياء من مسلاخ الضعفة . ويخلع الناس على العظماء وصف العظمة .

وما المعاناة والتضحية إلّا محاولات للثبات فى وجه الخطر ، أو لاقتحامه . فهى درجات فضل وأدوات تقدم فى معترك الوجود الإنسانى . تضيف إلى تياره المتدفق أسباب طهر ونقاء ، وأساليب بقاء ، منظورة للكثيرين ، وإن عمى عنها آخرون .

والدرس السادس : يتعلق بوظيفة التاريخ . فهو يصحح العوج ويصوب الانحراف ، بالاستقامة على الجادة ، خضوعًا للعدل . وهو قانون السماء .

إن الغلام المريض الذى بقى فى خيمة أبيه يوم كربلاء « زين العابدين » سيحيا ثلاثة وثلاثين عامًا حتى عام ٩٤ ، لتتسلسل فى عقبه ذرية ترفع أعلام الإسلام عالية فى ضمائر البشر . فى حين أن الطاغية الذى يرسل النار والدمار على البيت العتيق بالحجاز وعلى أهل البيت ، فى صحراء العراق ، سيزول ملكه - هو - وينقطع دابره - هو - بعد ثلاث سنين بتنازلٍ من ابنه عن ذلك الملك . لينقطع اسم معاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن معاوية ، من سجل الحوادث . وتخلد آثار أهل البيت ما تعاقب الجديدان ، آية من السماء على أن دولة القتلة لم تعش . وأن دولة القتلى ستعيش أبدًا . وأن دولة الظلم لا تبقى بمقاييس الزمن إلّا ساعة أو هُنَيَّةً - أما دولة العدل فتبقى إلى قيام الساعة . وأنه تعالى صادق الوعد (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .

وما أكثر ما كانت الغلبة ببقاء أسباب الانتصار ، يتحقق بها النصر فى مكان آخر أو زمان آخر ، بقوم يحبهم الله فينصرهم مهما كان عددهم ، ويحبونه فيجودون بأرواحهم .

والدرس السابع : درس فى مبلغ ما تنجح الاستقامة ويفلح الإخلاص : فإذا كان أقرب الخطوط إلى الهدف هو الخط المستقيم وإن كان ترسّمه أشد رهقًا ، فإن استشهاد أبى الشهداء كان الأساس السليم لقيام الصرح العظيم الذى جمع بين عمله وبين اسمه فصيرهما مبدأ . يحدث أثره فى عمارة الدنيا وإصلاح الجماعة ، فى شكل قيام دولة ، أو غلبة مذهب ، أو وجود قدوة ، أو ازدهار أمل ، فى بعث منتظر .

بهذا دارت الأفكار الدينية والمذاهب الفقهية للشيعة ، سواء الإمامى منها ، أو الإسماعيلى ، أو الزيدى . فى آفاق الحسين العالية . وبلغت أوجها فى الفقه العملى القدير على التطور وفق حاجات البشر ، فى العبادات والمعاملات والأخلاق والنهج العلمى .

واستمسك المسلمون عمومًا والشيعة خصوصًا ، بالحسين وآله وأبنائه ، واقتدوا ببطولاتهم ، ومقولاتهم ، فاستخرجوا منها أصولاً زخارة . وبنوا عليها فروعًا فى الدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، لتقيم نظمًا سياسية وعلمية وفكرية واقتصادية متكاملة ، هى كالنهر العظيم يجرى إلى جوار النهر الذى يسبح فى تياره أهل السنة .

والنهران يتجاريان ، كأنهما البحران يلتقيان ، على أصول الإسلام . ويعملان - كل على شاكلته - فى تدعيم مبادئه .

* * *

وفى استشهاد علىٍّ بطعنة خارجىّ ركبته الشياطين ، وفى ظلم معاوية وقومه له، حيًّا وميتًا ، وفى استشهاد الحسين وبنيه ، وبنى أخيه ، ومن كانوا معه من الشهداء الذين ذكرناهم ، والذين سنذكر البعض منهم ، على أيدى الكثيرين ممن سنرى فظائعهم بعد ، نمت وترعرعت عقيدة أهل الإسلام :

١ - أن عليًّا قبل التضحية دائمًا ، فى جوار النبى ، وبعده ، هو وبنوه . وأنهم ضربوا الأمثال من أنفسهم ، لا بمجرد النصيحة أو الفصاحة ، أو السياسة . ولكن بالدم الذى يتكلم ، فتكون له بلاغة الشهادة بين يدى الله

سبحانه . فأصبحوا عنوانًا على العدل المفتقد ، والأمل المنتظر ، وبابًا للرجاء فى عدل السماء ، لتتدارك المسلمين برحمتها ومغفرتها .

٢ – أن المسلمين يضيفون إلى حساب الحسين ، من حساب بنى أمية وعمالهم وسفاحيهم ، إذ أرادوا السلطة والمال وشفاء صدور قوم مبطلين . فقطعوا صلتهم بالله يوم قطعوا رأس ابن بنت رسول الله . وفى حين يتراءى قتلة أمير المؤمنين علىّ « خوارج » كما تضافرت الأمة على وصفهم ، أو « بغاة » كما سماهم أمير المؤمنين نفسه ، إذ لم يخرجوا عليه إلّا لفهم مخالف من أجل الدين . يتدلّى قتلة الحسين إلى أدنى درك فى جهنم ، سفّاحين أجراء . وتتعالى بطولات الحسين قدر ما تتعمق الحسرة من أجل استشهاده . فتبرز فى إجماع المسلمين عليه بطلاً ، وفى الفكر الشيعى ، حيث يضاف جهاده إلى الوصية له بالإمامة .

فهذا يوم للحسين وحده ، ناله بحقّه ، وفيه سند لإمامة الأئمة من أبنائه : على زين العابدين . فمحمد الباقر . فجعفر الصادق . فالباقين من الأئمة .

* * *

ظلت شجرة العدل ، والعلم ، والأمل ، تُسقى بدماء الشهداء كلما رأت السماء مصلحة للأمة . فلم تلبث الكوفة بعد نحو عام واحد من وقعة الحرة أو ثلاثة أعوام من يوم كربلاء أن هزّ ضميرها تقصيرها .

فقامت من الفور حركة التوّابين سنة ٦٤[1] بين أهل الكوفة الندامى على ما فرط منهم من تقصير . فقتلوا قتلة الحسين وقواد جيش عبيد الله بن زياد ، ولم تنته الندامة بقتل المختار بن عبيد زعيم التوابين سنة ٦٧ ، بل توالت الحروب على دولة بنى مروان ، بقيام دولة عبد الله بن الزبير ، وخروج

---

(١) تزعمها المختار بن عبيد الله الثقفى قائد عمر لفتح العراق . وكان المختار بن عبيد الله ممن قدموا مع مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة فحبس ثم شفع له صهره عبد الله بن عمر فقبل ابن زياد الشفاعة فيه إذ لم يخف خطره . ولما خرج المختار أعلن أنه يحارب باسم محمد بن الحنفية « أخى الحسين لأبيه » ثأرًا لدم الحسين . وانتصر المختار على جيوش بنى أمية . ثم قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ . وأعلنت عليه حرب الدعايات فاتهموه بادعاء النبوه وأن من اتباعه من ينتظرون رجعته .

الخوارج ، وقيام الفتن ، ومنها فتنة ابن الأشعث وقد انضم إليها العلماء . وخروج زيد بن على زين العابدين ، وخذلان أهل الكوفة له سنة ١٢١ كما خذلوا جدّه سنة ٦١ . فاستشهد زيد ومثّل برأسه[1] الخليفة هشام ابن عبد الملك ، ثم استشهد ابنه يحيى سنة ١٢٥ .

* * *

وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين شجرة باسقة تترعرع فى كل ورقة من أوراقها خصيصة من خصائص أهل البيت فى عصر جديد للعلم . تعاونت فيه أجيال ثلاثة متتابعة منه ومن أبيه وجدّه .

ولما استمسك بإمامته وقنع بمنصبه التعليمى ، علا قدره فى أعين طلاب السلطة . وأمنوا جانبه . واتخذوا من زهده فيها شهادة لهم ضدّ من ينازعونهم .

لكنه كان الغرض الذى تنجذب إليه الأنظار : فهو يمثل العقيدة الدينية التى يقاس بفضائلها عمل الحكام فى الإسلام ، وما يتبعه من رضى العامة عنهم ، أو سخطها عليهم .

وهو - بوجه خاص - حجر الزاوية من صرح « أهل البيت » ترنو إليه أبصار الذين يدّعون الخلافة بدعوى أنهم من « أهل البيت » .

وهو مقيم فى المدينة ، العاصمة الأولى ، والدائمة ، للإسلام ، يتحلق فيها المتفقهة ، حول علماء الإسلام فى مسجد الرسول ، يحملون بأيديهم مصابيح السنّة ، أو يعلنون شرعية الحكومة أو عدمها ، وحسن السيرة أو فسادها ، وإقرار أهل العلم أو إنكارهم . وهى أمور أساسية ، تحرص عليها الدولة العادلة ، وتتجنب الاتهام بمخالفتها أى دولة .

وإذا كانت دمشق قد أدارت ظهرها لمدينة الرسول ، أو كانت بغداد قد فتحت أبوابها على العالم ، وأوصدتها دون أهل المدينة ، فالمسلمون يأتون إلى

---

(١) لم تمض أعوام حتى دالت دولة بنى مروان ، ونبش العباسيون قبور معاوية وابنه يزيد وعبد الملك ابن مروان فلم يجدوا فيها ما يصنعون فيه مثلة . أما قبر هشام فوجدوا فيه جثة هشام لم تبل بعد ، فصنعوا فيها أكثر مما صنع برأس زيد . إذ أمر السفاح بضربها بالسياط وصلبها وحرقها وتذريتها فى الهواء .

مدينة الرسول كل عام ، خفافًا وعلى كل ضامر ، إذ يحجّون إلى البيت العتيق بمكة ، ويزورون قبر الرسول ويشهدون آثاره فى المدينة .

وإذا كان الخليفة المنصور يقول عن نفسه : « إنما أنا سلطان الله فى الأرض » فهو يحسّ وطأة « سلطان الدين والعلم » فى المدينة ، حيث إمام المسلمين غير منازع « جعفر بن محمد » الذى يصفه الناس - وأبو جعفر المنصور فى طليعتهم - « بالصادق » .

ومن أوصافه كذلك : « الطاهر » و « الفاضل » و « الصابر » .